دعوة الحق



تأملات قرآنية

بقلم
الدكتورة عصمت الدين كركر

السنة السابعة - العدد ٧٣ - ربيع الثاني ١٤٠٨هـ - نوفمبر ١٩٨٧م


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه الفصول القصيرة كتبتها المؤلفة الفاضلة الدكتورة عصمة الدين كركر.. وهى تتأمل بعض آيات القرآن الكريم.. فى موضوعات كونية ونفسية واجتماعية.

وما أحوج المسلمين اليوم إلى أن يتأملوا مع المؤلفة هذه الآيات الكريمة، وما تضمنته من بيان وذكرى وموعظة..

وصدق الله العظيم إذ يقول:

● **﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾**[1].

المشرف

---

(١) سورة يونس/٥٧.

« اقرأ »

إن أولى الآيات النازلة على قلب محمد ﷺ هى قوله تعالى ﴿**اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم**﴾[1]

خمس آيات قصار دعت ونبهت إلى خمسة من المعانى العظيمة :

ـ أمر بالقراءة والتتبع واجالة النظر .

ـ نطق باسم الخالق الأعظم الرب الأكرم .

ـ لفت اهتمام الإنسان لآيات الله فى خلقه .

ـ إشارة إلى طرق تناول قضايا الحياة الدنيا .

ـ دعوة للإنسان ليستفيد من فضل الله ويتعلم ما لم يعلم .

ولعل القصد من ذلك أن تزرع فى نفوسنا خمس قيم أساسية هى :

ـ ارتباط العلم والمعرفة بسمو الإيمان ونصاعته .

ـ وجوب طلب العلم وتنمية المعارف .

اختلاف مجالات المعرفة باختلاف أنماط خلق الله .

ـ تعدد منهجيات وأساليب الوصول إلى العلم بداية من القلم

---

(١) سورة العلق/١ ـ٥ .

وانتهاء بما وهبه الله للإنسان من عقل .

ـ الاستعانة بفيض الله وكرمه فى العمل العلمى .

لقد كان ما كلف الله به عباده فى هذا الوحى القرآنى أن أمره بالقراءة والمعرفة ونبهه إلى أن المعرفة المرتبطة بالإيمان والناتجة عنه هى التى تصل بالإنسان إلى سمو العبادة ، وسمو العبادة هو الذى يضمن للإنسان سلوك مدارج الخير الفردى والاجتماعى لذلك كانت العبادة غاية فى وجود الإنسان لقوله تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾[1] .

فالأمر بالقراءة فى الآيات الأولى من سورة العلق تكليف بالعبادة عن طريق القراءة والتتبع والعلم اليقين الذى هو فريضة على كل مسلم ومسلمة .

والاستجابة تكون بالطاعة عند التلقى والإحسان عند الأداء وإعمال الفكر وكمال الإيمان عند القيام بالعبادة والتحلى بالتقوى ، وهى عناصر أجرها عظيم فى الدنيا والآخرة وجزاؤها فيهما وفاقا وأوفى .

والعلم ـ كما هو معروف ـ منه النظرى ومنه التجريبى التطبيقى .

وللعلماء مناهج فى تناولهم للعلوم التى يفحصون فيها وهى مناهج تختلف أساسا باختلاف غاياتهم التى يرسمونها لأنفسهم والدوافع التى وجهتهم نحو العمل العلمى .

فمنهم الباحثون المجربون العقلانيون الذين ينطلقون من واقع

---

(١) سورة الذاريات/٥٦ .

المسألة أو القضية المدروسة ليحققوا مزيدا من المعرفة بها ويحاولون تنويع المعلومات للاستفادة والإفادة فالغاية الوحيدة هى المعرفة المجردة والغرض دنيوى . أما الدافع فهو حب الذات أو الجماعة أو الوطن .

ومنهم الباحثون المجربون المعتمدون على العقل يدرسون المسألة أو القضية ليحققوا المزيد من المعرفة وليحاولوا تنويع المعلومات للإفادة والاستفادة ولكنهم ينطلقون من واقع وجودهم وتأمل خلقهم وتنشئتهم وإبداع ما حولهم من الكائنات لتبين قدرة الخالق الأعظم والرب الأكرم ـ فالدافع لهم فى ذلك إيمان برب السماوات والأرض وغايتهم السامية من وراء المزيد من المعرفة ـ حسن المعرفة بالله الذى تكرم عليهم بأن علمهم ما لم يكونوا يعلمون ولتكون لهم مشاركة فى خير الإنسانية .

فإذا كان الشكل الظاهرى للمنهجين واحد فإنهما يختلفان اختلافا بينا فى المنطلقات والدوافع والغايات . لذلك تكون النتائج ـ قطعا ـ مختلفة متباينة .

فالمنطلق العقلانى الأول اعتمد فى بداية عمله العلمى على إنكار وتنكر للقدرة الإلهية التى هى أصل وجود العلم والعلماء والأشياء المعلومة وركب مركبا متحررا من الخير والشر والصلاح والفساد وقصد الوصول إلى المعرفة والانتصارات العلمية التى كثيرا ما هزت كيانه وقوضت أركانه وهدمت كل معانى الإنسانية فيه .

أما المنطلق العقلانى الثانى فقد اعتمد فى بداية عمله العلمى على اعتراف بالحقيقة الأولى للمعرفة وهى الإيمان بخلق الله للكائنات ثم

ركب المركب الخاضع لحقيقة الخير والشر والعمل فى سبيل الصلاح وترك الفساد ، وهو يقصد الوصول إلى المعرفة والانتصارات العلمية التى تقف عند الحدود الشرعية فلا تمس بأصل من أصول المعانى الإنسانية بل تعتبر النتائج العلمية الباهرة أدلة على عظمة الخالق الذى أنشأه من علق وعلمه ما لم يعلم وما أوتيه من قليل العلم هو من الرب المتكرم الاجل الأعظم .

فالانطلاق الأول خلَّف كبرياءً وكفرًا واستعلاءً وضررًا كبيرًا للإنسانية .

والانطلاق الثانى إيمان واستجابة للتكليف وسمو وتطلع إلى درجة الاستخلاف فى الأرض لا يمكن أن تحدث عنه للإنسانية مضار ولا هزات .

فى المسار الأول تقديس للعقل البشرى ولمدارك الإنسان مع تجاهل وإنكار للقدرة الإلهية وتسيب لا يمتنع فيه العالم عن أى سبيل ولو كان شرا مستطيرا .

أما فى المسار الثانى فهو اعتراف بالخالق الكبير ومعرفة بحدود وامكانيات الفكر البشرى وامتناع عن كل شر وسعى إلى كل خير .

وللمزيد من بيان اختلاف طرق الاستفادة وتصوير تباين النتائج يمكننا أن نتتبع الطريقتين فى تناولها لقضية خلق الإنسان من قوله تعالى : ﴿**اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم**﴾

﴿**اقرأ**﴾ القراءة والنظر والفهم قدر مشترك بين النوعين ومجال عمل لكل واحد منهما .

﴿**باسم ربك الذى خلق**﴾ قدر خاص بالمؤمنين الذين يتناولون القضية العلمية دون حيرة فكرية لأنهم عرفوا خالق الكائنات وتبينوا سبب وجود المادة المدروسة فإن الله هو الذى خلق .

﴿**خلق الإنسان من علق**﴾ فى الآية جانب يشترك فيه الطرفان وهو أن الإنسان خلق من علق . وجانب يفترقان فيه وهو أن المؤمن يعرف سبب هذا الخلق ويوقن بأن الله هو الذى خلق الإنسان من علق .

﴿**اقرأ وربك الأكرم . الذى علم**﴾ قدر خاص بالمؤمنين إذ ارتبطت فيه القراءة باسم الله الأكرم وهى دلالة على ارتباط العلم بالإيمان . ودلاله على أن العلم هبة من الله الذى أعطى الإنسان إمكانية التعلم بما وهبه من العقل .

﴿**بالقلم**﴾ مقدار مشترك بين الطرفين حيث يستعمل الجميع أدوات العلم التى هى القراءة والقلم والفكر ويستعينون بها فى تقييد العلم وتدوينه .

﴿**علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ هذا المقدار هو محل النزاع ومجال الاختلاف .

فالمنطلق العلمانى المادى يؤمن بالمادة المتمثلة فى العلق ، والإنسان والقراءة والقلم . وينوه بمجهود الإنسان المجرب الحاصل على نتائج علمية وصل إليها نتيجة لنظره وعقله ومداركه فهى من صنعه ولا شىء وراء ما صنعه .

أما المنطلق الايمانى فهو يوقن أنه يعلم مما علمه الله وتكرم به عليه ، وهو عندما يقوم بعمله العلمى إنما يقوم به استجابة لأمر الله

له بالقراءة والكتابة والعلم وكلما سار على درب العلم كان عليه أن يراعى أمر ربه وأن يلتزم سبيل الخير ، وكلما وفق إلى نتيجة رائعة شكر الله على فضله وزادته إيمانا بالله وبقدرته .

وإن قضية خلق الإنسان من علق معلومة ثابتة حقيقية وتجربة علمية يقينية أعلمنا بها رب العزة فى كتابه الكريم منذ خمسة عشر قرنا ولكن التجارب مع التكامل الحاصل بين العلوم مكنا الإنسان إلى معرفة هذه الحقيقة منذ عهد قريب وبدلا من أن تكون هذه المعرفة دافعة بهم إلى الإيمان بالله الذى أعلمهم بها منذ نزول القرآن نسبوا شرف هذه المعرفة إلى أنفسهم وتداخلهم الغرور والسباق إلى الظهور فى غواية وعمى عن حقيقة الخير أو الشر ودون أثر لاعتقاد أو إيمان حتى ظهر امكان انجاب طفل الأنابيب فى قصته الطويلة .

ظهر طفل الأنابيب ليدوس العلماء فى صورته أسمى معانى الإنسانية حق البنوة والأبوة ، قداسة عاطفة الأمومة وسمو العاطفة التى تجمع بين الرجل والمرأة ، هذه التفاهة المخربة التى يعتبرها بعض الناس « معجزات العلم » أدت إلى جنون الأمهات وضياع حقوق الأبناء وانفصام العلاقة بين كل أفراد العائلة الواحدة مع اختلاط الأنساب وتفشى الأمراض الجسمية المستعصية والأمراض النفسية الخطيرة .

أين هو الخير الذى يمكن أن تجنيه الإنسانية من معرفة العلم لطريق الوصول إلى طفل الأنابيب خاصة ونحن فى عصر يشن فيه الإنسان الحملات المسعورة ضد تكاثر النسل وتعدد الأولاد ؟

أين هو المنطق السليم الذى يمكن أن يجمع فى وقت واحد بين

البحث عن طرق ولادة أطفال الأنابيب وطرق منع الحمل عن مئات الملايين من الأمهات ؟ وطفل الأنابيب الواحد يكلف آلاف الدولارات فى حين أن آلاف الناس يموتون جوعا فى بعض البلاد وكان يمكن أن ينقذ الكثير منهم ثمن طفل واحد أنتجته الأنابيب .

ثم أين هى وظيفة العلم وسموه ، فهل أصبح العلم للخراب ؟ والمعرفة للتعالى والغرور؟ ونتائج العلم للقهر والمحق ؟

أم أن العلم للبناء والمعرفة للعطاء ونتائجها أمان وازدهار للإنسانية ؟

إن العلم الحق هو ذلك المتسم بالعطاء للخير والنفع العميم ولا يمكنه أن يصل إلى هذه الدرجة السامية إلا إذا خضع للإيمان ووقف عند الحدود الربانية : الخير ، والشر ، الحلال والحرام ، المصلحة والمفسدة . حتى يصبح الحق بيّن والظلم بيّن ، والفائدة بينّة والمضرة بينّة .

ادعت هذه الفئة الضالة من العلماء أنها تمتلك أعظم قوة فى الإنسان وهى العقل واستغنت به عن كل ما سواه من الحقائق ـ وأعلاها حقيقة الإيمان ـ وسموا أنفسهم عقلانيين ، كأن غيرهم من العلماء المؤمنين ليس لهم نصيب من عمل العقل . وهى ـ حسبما أدى ـ مغالطة من مغالطاتهم العديدة ، فأى علم يبحثه العالم المؤمن دون أن يستعمل العقل فيه ويستفيد من كل إمكانياته ؟ فالعقل هو الوسيلة التى علم الله بها الإنسان ما لم يعلم ، وهو الذى يقرأ وهو الذى به يتفكر وينظر ويصل إلى الحقائق العلمية . ولهذا العقل قدرات محدودة شأنه شأن غيره من القدرات الإنسانية .

الجسم النظر السمع إلخ ... ولا شك أن أجل ما فى الإنسان عقله الذى يستعمله للبرهان والاستدلال والاستنتاج وهو يخطىء ويصيب يقوى ويضعف ، ينجح ويخفق . وليس للعقل من ضمان غير أن يوضع فى النهج الحق الذى حصنه الشرع ووجهه الرب الحكيم فى كتابه الكريم وسنة رسوله المشرفة .

أما من طغى وتجبر وعبد المادة وأنكر الحق واستعلى بالتجربة الخاطئة وانتهج الضلالة والتضليل واستعملوا العقل دون أن يضعوا له حدودا من الدين والخلق وسموا أنفسهم « بالعقلانيين » إنما هم ماديون متطرفون عبدوا النفس وركبوا الهوى فقدموا للإنسانية بهرجا من العلم وظاهرا من العجائب كثيرا ما كانت سببا فى الكثير من مآسى الإنسانية ــ حالا ومستقبلا .

إن حقيقة الحياة الدنيا لا تستقيم لبشر ما لم يدرك الحقيقة الإلهية القادرة مع تفهم لحدود ذاتيته القاصرة واحتياجه لرب كريم يهديه سواء السبيل ، فى هذا الإطار يمكن للإنسان أن يبذل الجهد ويدخل ميدان العلم ليعلم ما لم يعلم ويتعرف على مختلف القضايا التى تواجهه فى حياته من شرعية وأدبية ومادية وغير ذلك .

هذه المعرفة يجب أن تصل إلى الإنسان بطريق التلقى من المنابع السليمة الثابتة ، ويستعملها بالطرق والمنهجيات الصحيحة سائرة فى مسار محمى من الضلال والشر والغرور .

إن طلب العلم وتقصى المعرفة من أوكد واجبات الإنسان المسلم حتى يشرف حقا على بقية المخلوقات ويصبح مصداقا لقوله تعالى ﴿**ولقد كرمنا بنى آدم**﴾ ويكون فى مستوى ما كلفه الله به من قراءة

وتعلم وكتابة وتدبر وتفكر إن كان من أولى الالباب .

وإذا ان تلقى العلم على المنهج الإيمانى واجباً وجهاداً وشرفاً يشرف به المسلم فإن إبلاغه إلى الناس مهمة من أجل وأعظم ما يتحمله العالم المسلم ، فهو مسؤول عن علمه وماذا عمل به وهو مسؤول عن إبلاغه وعدم كتمانه وفى الحديث « **من كتم علما ألجمه الله بلجام من النار** » . والعلم بالمنهجية الإسلامية فى مختلف العلوم أكيد وضرورى وهو أوكد ما يحتاج إليه شباب محمد ﷺ فى عصرنا الحاضر .

ولله الأمر من قبل ومن بعد

﴿إنا كل شىء خلقناه بقدر﴾[1]

تشير هذه الآية الكريمة إلى حقيقة علوية كاملة صادقة ، إنها حقيقة الكون وما حوله من عوالم وأجرام وما فيه من مخلوقات وأحوال . ونظم وارتباطات وعلاقات ووظائف .

لقد قدر الله جل وعلا لكل شىء مقداره وصفته وخصائصه ووظيفته وضبط زمانه ومكانه ، وارتباطه بسائر ما حوله من الأشياء الأخرى والمخلوقات المغايرة له ، ومن بين ما قدره من المخلوقات الإنسان الذى جعله مزدوجا متكاملا ، فعلى الرغم مما نلاحظه فى الإنسان من اختلاف بين الجنسين : الذكر والأنثى فإن حكمة الله ـ عز وجل اقتضت أن تجعل من هذا التباين الظاهر بواعث للتآلف وعوامل للتكامل والتناسق الذى كان أساسا للحياة الإنسانية ووسيلة لتنميتها واستمرارها .

دعانا الله تعالى لتدبر أمر النفس البشرية وما فيها من عوالم ودقائق وخصائص فقال ﴿**وفى أنفسكم أفلا تبصرون**﴾[2] فكان

---

(١) سورة القمر/٤٩ .

(٢) سورة الذاريات/٢١ .

ذلك دافعا لتطلع الإنسان إلى أمر الخليقة والكشف عن بعض من جوانبها فإذا هو يلاحظ أن هذا التباين بين الجنسين على سعته وتنوعه يقوم أساسا ومنشأ للتكامل البشرى واستمرارية الحياة . ومن ثم وجدنا علماء التشريح والحياة وعلماء النفس والتربية يتأملون ويحللون فيقفون على أوجه الاتفاق والتماثل ومظاهر الاختلاف والتباين بين الذكر والأنثى فيتوصلون إلى تنويع الفوارق وتبويبها إلى :

فوارق جسمية ، وعقلية ، ووجدانية .

١ ـ **الفوارق الجسمية** : إن كل التغييرات الشكلية فى الجسم تحمل طابع الفوارق الناتجة عن الجنس فى شكل العضلات والأنسجة والوظيفة الفيزيولوجية وفى التركيب الكميا حيوى ويمكن أن نقول أن كل خلية من الجسم وكل عضله فيه تحمل الطابع المميز لجنسه « الكروموزومات » .

وقد تزداد المعلومات يوما بعد يوم لتثبت دقة هذه الفوارق وتأثيرها على الوظائف الإنسانية .

بحثوا عن المخ وحجمه وسجلوا فروقا تختلف باختلاف مراحل الحياة وفى الأعضاء وتأثيرها فى الحالات العقلية والقوة والضعف .

٢ ـ **الفوارق العقلية** : ومقياس الذكاء مما أقرته التجارب أن المرأة ليست أقل ذكاء من الرجل سواء فى مراحل التعليم أم فى الحياة العامة . ويقرر كثير من علماء النفس أن مهارتها التى تتساوى فى القوة الموروثة المتوفرة لديها ولدى الرجل ، ليست راجعة إلى اجتهاد المرأة أو اجهادها نفسها فى العمل . فقد تتميز النسوة

بالاهتمام بالأشياء التى حولهن فى حين ينصرف اهتمام الرجال إلى ما هو أبعد .

٣ ـ الفوارق الوجدانية : استطاع العلماء الجزم بأن انفعالات الرجل وإن كانت أقل ظهورا ـ هى أعمق وأطول أثرا من انفعالات النساء رغم كون هذه الانفعالات سريعة وحادة لا تقدر المرأة فى أغلب الأحيان على كظمها وإخفائها .

ولاحظ علماء التربية شدة تأثر البنات بالوجدانيات فهنَّ أكثر اكتراثا للمدح والثناء والتوبيخ والعقاب .

اقتضت حكمة الخالق المصور وعظمة تقديره لما خلق أن يختلف الإنسان نوعا ذكورا وإناثا ويختلف الواحد فى النوع اختلافا عن الآخر فى الشكل والعقل والوجدان فيكون شخصا معينا وذاتا تخالف الذوات البشرية الأخرى بشخصية متميزة يقدرها جل جلاله ويحصيها . فما هى مميزات الشخصية ؟

الشخصية : تعريفا ومميزات .

تعريف الشخصية يتسم بالتشعب حيث لا يمكن أن يبحث فيها كلفظ مجرد غير مركب أو مضاف لعموم اللفظ وشموله واتساع مجالات أنظاره . قد يتضح المعنى إذا قلنا شخصية إسلامية ، أو شخصية تاريخية أو شخصية وطنية فتكتسب اللفظة تخصيصا مما أضيف إليها فضيقت حدود مفهومها أما تقدير الشخصية مطلقة من كل قيد أو إضافة فإنه يعتبر من الموضوعات الحديثة والشائكة .

والملاحظ أن الأبحاث التى درست الشخصية وتحدثت عنها تعريفا وتاريخا وأفرادا كموضوع مستقل دون أن تكون ضمن

دراسات علم النفس العام وعلم نفس الطفل وعلم الاجتماع والبيئة والتاريخ والفلسفة قليلة جدا .

ومن الممكن الرجوع إلى القاعدة الأساسية فى البحث . فما معنى كلمة الشخصية ؟ ومم اشتقت ؟ وأين ظهرت دراستها ؟ وكيف تطور المفهوم مع التاريخ ؟

﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ ....

إنها الدعوة الهادفة للبحث عن المخلوقات عامة والإنسان وتنوعه ذكورا وإناثا وخاصية كل نوع فيه مميزات كل فرد فى مجموعته ؟

ظهر لفظ شخصية المشتق من كلمة شخص . نسبة إلى الإنسان الفرد ـ لأول مرة فى المجالين الدينى والمسرحى . فقد سعت المسرحيات منذ القدم إلى عرض خصائص الشخصيات الروائية ، واعتقد القدماء من أصحاب الديانات الوضعية أن كل إلـه من الآلهة المتعددة تشخيص وتضخيم لناحية من نواحى الشخصية بخصالها ومميزاتها ، فجعلوا إلاها للنور . وآخر للظلام ، وإلـها للشر وآخر للخير وواحداً للحب وغيره للحرب ثم اتصل مفهوم شخص بالفلسفة اليونانية فى القولة التى اشتهرت عن سقراط « اعرف نفسك بنفسك » .

وعندما تطورت الأوضاع فى روما ، وأصبحت لها بنية بورجوازية تعتمد على الملكية الشخصية فى نطاق الأسرة والمجتمع ، تكون عندهم مفهوم الشخصية القانونية .

وعقب الثورة الفرنسية أصبح من المسلم به الاعتراف بالآخر كشخص « مواطن » له حقوقه وحدود شخصيته .

أما المذهب الوجودى فإنه يعتبر أن الحرية هى العمود الفقرى الذى يقوم عليه الشخص . فالفرد يستعمل حريته فى كل آن لاختيار ماهيته وتحقيق مصيره . بينما ترى الماركسية أن الشخصية الفردية مندمجة فى المجموعة .

وقد نادت الأمم المتحدة بحرية الإنسان والاعتراف بشخصيته كإنسان فرد مساو للآخرين بدون ميزة أو تفرقة فى جنس أو لون أو دين .

أما الإسلام فقد جاء منذ خمسة عشر قرنا متميزا عمن سبقه ومتقدما عما تلاه فى مجال إبراز الشخصية وإعطائها صورتها الواضحة . فقد ظهرت الدعوة الإسلامية محاربة الحياة الجاهلية التى تضمحل فيها الشخصية الفردية أمام مفهوم القبيلة مما جعل الجاهلى يقول :

وما أنا إلا من غزية إن غوت   غويت وإن ترشد غزية أرشد

فأعلن الإسلام عن مبدأ كرامة الشخص التى تجب صيانتها وحرمتها ويحرم التنقيص منها . ومبدأ تساوى الناس فيما بينهم أمام الله قال تعالى :

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1] ، وقوله **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام**

(١) الحجرات/١٣ .

إن الله كان عليكم رقيبا﴾[1] .

وقد جاء فى تعريف الشخصية ما يؤكد على الوحدة والتكامل بين جميع العناصر المكونة لها ـ جسمية كانت أم عقلية ، اجتماعية أم خلقية ـ فكل هذه العناصر تمثل وحدات جزئية تتلاءم وترتبط وتتفاعل مع بعضها البعض لتكون كلا منسجما ومجموعة متناسبة ذات تنظيم معين . إنها ذلك الطابع الثابت نسبيا للتنظيم التكاملى لصفات الفرد الناتجة عن التفاعل الديناميكى المستمر بين استعدادت الشخص ومكونات جسمه وعقليته الموروثة والمكتسبة وبين المؤثرات المادية والاجتماعية للبيئة التى يعيش فيها فتحدد أسلوبه الخاص المميز له عن غيره فى التكيف مع البيئة فهى إذا واقع مركب متشعب يتطور دائما ويبحث عن الكيان المميز .

ومن أبرز مكوناتها : الجسم والنفس والثقافة ، والعلاقة بين هذه المكونات ليست مجرد ضم عنصر من هذه العناصر إلى عنصر آخر وإنما هى تكامل وتماسك لا يكون للشخصية بدونهما معنى ولا وجود .

ومن مميزات الشخصية :

١ ـ التكامل : حيث تقاس قوة الشخصية بقدر ما يكون بين مكوناتها من تماسك وانسجام .

٢ ـ الحركية « الديناميكية » : وهى دوام التفاعل والنمو والقدرة على التطور التى تضفى على الشخصية صفة الحيوية

---

(١) النساء/١ .

والنشاط .

٣ ـ الصفات الثابتة للشخصية ـ نسبيا ـ وهى التى تتغير بمرور الزمن فتجعل للشخصية طابعها الخاص وبها يمكن أن نميز شخصا عن غيره . مثل هيئة الجسم ونوعية الذكاء العام والاستعدادات الموروثة أو المكتسبة التى لها صفة الدوام والثبات بالنسبة لغيرها من الصفات الأخرى العارضة والدائمة التغير .

٤ ـ الشخصية ليست مجرد المظاهر الجسمية فقط ، كالمخ والعظام والجلد وطريقة الابتسام والملامح وشكل الأنف والذقن أو غيرها من الأمور المخصصة للفرد شكلا ، بل يتم تحديد الشخصية بخصائص أخرى عقلية ونفسية مثل آمال الشخص وأفكاره ومشاعره وما يحب وما يكره وعلاقته بالآخرين وميوله . والشخصية ليست هذه أو تلك مجتمعة أو متفرقة ، بل تتضمن أيضا اندماجا وخلطا بين هذه المكونات وتفاعلها والطريقة التى يلجأ إليها الجسم فى التعبير وإبداء نتائج التفكير .

٥ ـ طريقة التكيف مع البيئة : إن القوى المادية والاجتماعية فى البيئة لها كبير الأثر فى تكوين الشخصية اعتمادا على قاعدة الإنسان ابن بيئته .

٦ ـ التميز : لكل شخص ميزة خاصة تميزه عن غيره بحيث لا يوجد اثنان متطابقان تطابقا تاما مطلقا فى كل تلك الميزات مجتمعة وهذا الأساس إن دل على شىء فيعنى التميز والتفرد ، وهو العامل الأساسى الذى يقوم عليه معنى الشخصية التى تتكون من عناصر :

(أ) العنصر البدنى .

(ب) العنصر النفسى .

(جـ) العنصر الثقافى .

وهذه العناصر الثلاثة المتباينة (ميدانيا) من حيث التعريف والمشتركة وجودا فى الشخص الواحد هى التى تميز شخصيته وتبرز شخصانيته .

فالشخصية فعالية وانفعال وتطور وسير إلى الأمام يحدد خطواته إيقاع حركة التشخيص فأحيانا يكون هذا الإيقاع سريعا ، وأحيانا يكون بطيئا حسب المستوى الثقافى ، وأوضاعه الخاصة داخل الإطار العام للحضارة . فالشخص لا تحدد شخصيته فى مفاهيم مختلفة أو فى أحكام عامة لاستمرارية التغير والتحول والتكامل .

وشخصانية الفرد تقدر بما يلاحظ عنه من فاعلية متمكنة من استثارة استجابات إيجابية من لدن العديد من الناس وفى ظروف مختلفة .

ومفهوم الدور الذى تحدث عنه « بيتسون » (١٩٣٦) وتفاعلاته تبرز بوضوح معانى عمليات وتأثيرات التطبيع الاجتماعى للفرد ، وهو ينظر إلى الشخص المطبَّع اجتماعيا ، كما لو كان يؤدى عددا من الأدوار التى حددها له مجتمعه بناء على عمله وجنسه ، وعنصره ، ومهمته ، ودينه ، وبناء على انتمائه لجماعات أخرى . فالمتوقع أن يؤدى الشخص دورا مختلفا تماما عن الدور الذى يؤديه آخر ، وهناك دور للذكور وآخر مختلف عنه للإناث .

اعتبر بعضهم أن الشخص كائن لا يمكن تعريفه وحاول آخرون

حده بالتيار الحيوى ، ولكن الحركة المتطورة الهادفة التى تجعله دائما مقدما عليها هى المحددة له ، فالبيئة الوظيفية لكل شخصية تخضع لقابليتها وإمكانياتها ، كما تخضع للمواقف والحاجيات وأخيرا للبيئة .

أهم مميزات الشخصية وأدوارها :

إن أهم المظاهر التى تتميز بها الشخصية عند الإنسان ـ فردا أو نوعا ـ هى نتيجة تفاعله مع :

(أ) حياته الفردية وهى التى تسمى « الشخصية الفردية » علاقة الإنسان بربه .

(ب) حياته ضمن المجموعة التى تشترك معه فى النوع ، وهو ما يسمى بالشخصية النوعية « علاقة الفرد بالفرد من نوع واحد ذكورا أو إناثا معاملات وعبادات » .

(جـ) حياته وتعامله وردود فعله مع النوع المقابل الذى يتكامل معه وهو ما يسمى « بالشخصية التكاملية » العمل المشترك « معاملات وعبادات » .

(د) حياته ووظيفته ضمن الوحدة الاجتماعية التى تشترك معه فى النمط الثقافى والحضارى والمبدئى الدينى المذهبى . وهو ما يسمى بالشخصية الاجتماعية فى الأمة الاسلامية خير الأمم .

فلحكمة قدرها الله عز وجل وأرادها لعباده أن خلق الذكر والأنثى وميز كل جنس بخصائص ينفرد بها ويتم لديها هدف الحياة وشخص كل فرد بخصائص جسمية وعقلية ووجدانية تفاعلا

وحركة تفرد ، عمن سواه من الجنس البشرى عامة بدقائق كشف العلم الحديث عن بعضها ولا زال الكثير الكثير غامضا ومستعصيا وما أوتى الإنسان من علم الله جل وعلا إلا قليلا ، نقطة من بحر وكلمة من جسر بمجلدات وإذا أثبت كثير من العلماء أخيرا بعض مقومات الشخصية وكشفوا عن اختلاف الفرد الواحد عن الفرد الآخر فإن توجيه الله عز وجل وتشريعه المحكم فى كتابه الكريم وسنة نبيه ﷺ الشريفة المطهرة جعلت الأمة الإسلامية خير الأمم اجتماعيا إذا اكتسب الفرد فيها الايمان بالله فأضفى عليه ميزة تخصصه وذاتية مميزة رجلا كان أم امرأة وهى الشخصية النوعية لضمان الغاية وبالتطبيق والتكليف يشرف وبقدرة التفاعل والتكامل والحرص على التخلق بخلق القرآن والتهذيب بالشريعة السمحة أخذا وعطاء يكتسب درجة تقوى تصاعدا أو تنازلا فسبحان الله المقدر الخالق البارىء المصور وهو على كل شىء قدير .

﴿ونفس وما سواها﴾

ورد لفظ النفس فى القرآن الكريم فى آيات بينات بلغ عددها خمسة وتسعين ومائتى آية فإن هذه المجموعة الكبيرة من الآيات الحكيمة تدل قطعا على أهمية النفس الإنسانية وشأنها فى تركيبة الفرد البشرى . ولو جمعنا ما قاله المفسرون ـ من قدامى ومحدثين ـ فى بيان المعانى القرآنية المتعلقة بالنفس وأحوالها لتراكمت أمامنا المجلدات الضخمة ولكننا فى هذه الخاطرة نكتفى بإلقاء بعض الضوء على حالات النفس البشرية كما وصفتها آيات الذكر الحكيم .

ليس من العجيب أن يتناول القرآن النفس البشرية بالتعريف وبيان خصائصها وأنواعها فالإسلام عقيدة ترمى إلى هداية النفس وتربيتها وتوجيهها إلى المسار الصحيح لتصل بعد ذلك إلى قبول الشريعة والأحكام والقوانين الإلهية من عبادات ومعاملات وغيرها .

فالنفس هى القناة الأولى المتلقية للاعتقاد ثم إنها هى التى تبلغ آثار الاعتقاد إلى السلوك والتفكير والجوارح لذلك أمرنا الله تعالى بالحفاظ عليها والتمسك بما يكون سببا فى سلامتها ﴿**ولا تلقوا**

بأيديكم[1] **إلى التهلكة﴾**[2] **﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما﴾**[3] كما حرم الله علينا قتل النفس إلا بالحق فقال : **﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق﴾**[4] وقال **﴿ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق﴾**[5] وقال **﴿من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا﴾**[6] .

لقد عظم الله قتل النفس البشرية وإتلافها وجعلها من حدوده التى يحرم تعديها وشبه قتل النفس الواحدة بقتل الإنسانية عامة لبيان ضخامة الجرم وفداحة الاعتداء وما ذلك إلا لأن الله شرفها بأن جعلها مصدر الحياة وسبب التكليف وباب الهداية والإيمان أو بسبب الغواية والخسران .

وقد فصل لنا القرآن الكريم أنواع البشرية بحسب ما ربيت عليه وتدرجها فى مراتب الخير أو تدحرجها فى طبقات الحضيض فكانت :

ـ النفس الزكية **﴿أقتلت نفسا زكية بغير نفس﴾**[7]

ـ النفس المطمئنة بالإيمان **﴿يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية﴾**[8]

ـ النفس اللوامة **﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾**[9]

ـ النفس التقية والنفس الفاجرة **﴿ونفس وما سواها . فألهمها**

---

(١) أيديكم : أنفسكم . الكشاف للزمخشرى ١ : ١١٩ .

(٢) سورة البقرة : ١٩٥ (٣) سورة النساء : ٢٩ .

(٤) سورة الأنعام ١٥١ ، الإسراء ٣٣ . (٥) سورة الفرقان : ٦٨ .

(٦) سورة المائدة : ٣٢ . (٧) سورة الكهف : ٧٤ .

(٨) سورة الفجر : ٢٧ ـ ٢٨ . (٩) سورة القيامة : ٢ .

فجورها وتقواها﴾[1]

- النفس الشهوية ﴿**وفيها ما تشتهيه الأنفس**﴾[2]

- النفس الشحيحة ﴿**ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾[3]

- النفس الموسوسة ﴿**ونعلم ما توسوس به نفسه**﴾[4]

- النفس الأمارة بالسوء ﴿**وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء**﴾[5]

- النفس المجادلة ﴿**يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها**﴾[6]

لقد خلق الله سبحانه وتعالى النفس البشرية فى مختلف تصرفاتها الناتجة عن تأثرها بعوامل الخير والشر فكانت فى منطلقها سوية ﴿**ونفس وما سواها**﴾ فجعلها مستقيمة على الفطرة القويمة التى فطر الناس عليها وخلق فيها التأثر الذى يلهمها إلى التقوى أو الفجور إلى الهداية أو الضلال بسبب المؤثرات الخارجية وهو ما يدل عليه الحديث القدسى الذى أورده الإمام مسلم : يقول الله عز وجل « **إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم** » وقول الرسول ﷺ « **كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه** » .

وفى الحديث الشريف : أن رجلا من جهينة أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون .

---

(١) سورة الشمس/٧ ـ ١٠ . (٢) سورة الزخرف/٧١ .
(٣) سورة الحشر/٩ ، التغابن/١٦ . (٤) سورة ق/١٦ .
(٥) سورة يوسف/٥٣ . (٦) سورة النحل/١١١ .

أشىء قضى عليهم من قدر قد سبق ، أم شىء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأخذت به عليهم الحجة ؟ قال : **بل شىء قد قضى عليهم قال : ففيم نعمل ؟ قال من كان خلقه لاحدى المنزلتين يهيئه لها** . وتصديق ذلك فى كتاب الله تعالى ﴿**ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها**﴾[1]

فمن زكى نفسه بطاعة الله وطهرها من الأخلاق الدنيئة فهو المفلح الذى أصاب العمل الخير وتوجه الوجهة السليمة فنجا من الفجور والرذائل لقوله تعالى ﴿**قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى**﴾[2] وتزكية النفس تكون بإعطائها شحنة من طمأنينة الإيمان والعمل الصالح أما إذا طغت عليها شهواتها فإنه يعيدها إلى جادة الصواب بتفكيرها ودعوتها إلى التقوى .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ : ﴿**فألهمها فجورها وتقواها**﴾ قال اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها ....

وروت عائشة رضى الله عنها أنها : فقدت النبى ﷺ من مضجعه فتلمسته بيدها فوقعت عليه وهو ساجد يقول : « **رب أعط نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها** » وفى حديث آخر روى الإمام أحمد عن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « **اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل والهرم والجبن والبخل وعذاب القبر . اللهم آت نفسى تقواها** ،

---

(١) سورة الشمس/٧ ـ ١٠ .　　(٢) سورة الأعلى/١٤ ـ ١٥ .

وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها ، اللهم إنى أعوذ بك من قلب لا يخشع ونفس لا تشبع وعلم لا ينفع ودعوة لا يستجاب لها » . قال زيد كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكموهن .

أما إذا تركت النفس بعيدة عن التزكية والتربية والنصيحة والتفكير فقد خاب صاحبها فى سعيه وعمله لأنه دساها ـ أى أخملها وضيع تهذيبها وصيانتها من المعاصى وذلك بترك الطاعة ودفعها إلى التهور فى الشهوات مما يجعلها تقترف المعاصى دون رادع ولا لائم ولا مجادل . حتى تصبح النفس سببا فى ما يصيب الإنسان من سوء وبوار قال تعالى ﴿**وما أصابك من سيئة فمن نفسك**﴾ [1]

فإذا ألفت النفس المسير فى معابر الشرور وطرق الضلال كان الإنسان هو السبب الأول فى تدهورها الخطير أو ضياعها الكلى وهما درجتان واضحتا المعالم فى العديد من الآيات القرآنية .

فالدرجة الأولى هى درجة الإسراف على النفس التى يكون فيها الإنسان مضيعا لبعض تربية نفسه فلا يردها عن الخطيئة ولا يكبحها عن الذنوب والمعاصى ولكنها مع ذلك تبقى متعلقة بأوامر الإيمان متمسكة بحبال الإسلام رغم معاصيها فإذا جاءتها رحمة الله وأخلدت إلى التوبة وجدت من ربها فيض الرحمة وعميم الغفران وقد خاطب الله هؤلاء بقوله : ﴿**قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب**

---

(١) سورة النساء/٧٩ .

جميعا﴾[1] .

أما الدرجة الثانية فهى درجة أولئك الذين خسروا أنفسهم بما وقعوا فيه من كفر وجحود وإلحاد قال تعالى : **﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾**[2] **﴿إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾**[3] وهذه الخسارة الفادحة هى نتيجة اغفال أمر النفس وإرسالها نحو ظلمات الجهالة ومهاوى الكفر والفسوق .

من كل ما سبق يتبين لنا أن الله تعالى يدعونا إلى معالجة النفس بالتربية والتوجيه بعد ما بين لنا ما لهذه النفس ـ فى التركيبة البشرية ـ من أهمية فى مسيرة الخير أو الضلال ، وهو يدعونا إلى العناية بتهذيبها وتنقيتها لذلك بين لنا أنواع الناس بحسب مواقفهم مع أنفسهم إلى ثلاثة ضروب فى قوله تعالى **﴿فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات﴾**[4]

وإذا عدنا إلى تتبع معانى هذه الآيات الجامعة وهى قوله جل وعلا **﴿ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها﴾**[5] . فإننا نستشرف الكثير من قضايا النفس البشرية وأنماطها المختلفة وطرق معالجتها وتأديبها ونتائج إهمالها وترديها .

إن نفس الإنسان تحتاج إلى التزكية والاطمئنان والمجادلة فى الحق وبيان سبل تقوى الله لتكتسب من ذلك إيمانا وعملا صالحا

---

(١) سورة الزمر/٥٣ . (٢) سورة الأنعام/١٢ .
(٣) سورة الزمر ١٥ ، الشورى ٤٥ .
(٤) سورة فاطر/٣٢ . (٥) سورة الشمس/٧ ـ ١٠ .

سوية لها أثرها الكبير فى السلوك الفردى والمعاملة مع الآخرين وتنقية الحياة الاجتماعية . وبدون ذلك تقع النفس فى فجورها وتسيبها وزيغها عن الحق والعدل لأنها حرمت من التزكية والتبرئة والتهذيب فيكون صاحبها متبعا للهوى متمردا على الحق فى غفلة عمن خلق وسوى نفسه وعدلها .

وبهذا ندرك ـ حقا ـ أن النفس البشرية هى مناط التربية والتهذيب ومجال الترشيد والتقويم ومنطلق التزكية والتقوى فإذا حصلت على هذه المقومات دفعت بنا للإيمان والزكاء والصلاح وإذا حرمته اندفعت نحو التسيب والتهور والفجور .

وإن إكساب النفس صفاتها وطبيعتها يكون فى مراحل التنشئة الأولى مرحلة التكوين ولذلك يكون من الواجب على المربى والراعى أبا كان أو أما أو معلما مدرسا أن يرعى جانب النفس فى التركيبة للطفل فيهتم بها ويعطيها حقها من الرعاية السوية والتنشئة الصالحة والتهذيب القويم مستمدا ذلك كله مما جاء فى قسم واجبات الأبناء على الآباء فى الشرع استمدادا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ابتداء من اختيار الزوج أو الزوجة إلى أن يشتد عوده لكى ينعم بتعهد وتربية وتنشئة وتنمية تقوم حاجياته النفسية والجسمية والوجدانية حسب ما تقتضيه قدراته الجسمية والعقلية وإمكانياته الذاتية .

وإن من أخطر المراحل وأهمها فى تربية نفس الطفل هى المرحلة الأولى والثانية فهما منشأ التزكية والتقوى أو التسيب والتهور .

وكذلك المرحلة الثالثة من الطفولة هى مرحلة مهمة لأنها تحتاج

إلى القدوة فيكون على المربى مواصلة تمكين الطفل من ممارسة هذه المعانى التى لقنها وعومل بها فيكون إكساب الناشىء العلم اليقين بالرعاية الجيدة ليستوعب الطفل معنى القدوة التى هى احدى طرق التربية الصحيحة السليمة فقد رأيناه ﷺ وهو الطاهر الزكى يدعو ربه حتى يزكى نفسه ويطلب منه أن يلهمه صواب العمل وتقوى الله ويسأله خير الدنيا والآخرة .

على المربى أن يهتم بتدريب حواس الطفل وتمرينها على الممارسة بالرعاية المستمرة والتعهد الدائم بتقديم المثل فى الاستقامة والالتزام بتزكية النفس ولومها والتوجه إلى الله بأن يلهمها تقواها .

فيكون الطفل فى حماية من التسيب والتهور ومشاهدة المثل السوء .

فيكف بصره عن تتبع مساوى الآخرين .

وسمعه عن البذىء من القول .

ولسانه عن التلفظ بالتجريح والإيذاء .

ويده عن البطش والقهر والاعتداء .

وتفكيره عما يحرم ولا يحل .

وبهذا الشكل يمرن على استعمال حواسه فيما ينفع ويفيد وتأنس نفسه بتقوى الله والعمل من أجل مرضاته ويأمل فى تزكيتها وتقواها .

وهذه الطرق وتلك الاعتبارات هى التى تضمن بحول الله إيجاد الجيل الصالح النافع لنفسه وأسرته ووطنه وأمته جيلا يتحلى بأنفس زكية تخشع لربها وتتقيه فى سرها وعلانيتها .

فضمان القدوة وصلاح المنهل يقوم السلوك حتى لا تندس النفوس وتركن لهزات الهوى فتنسى وتنشغل وتتلهى عن هداية التنزيل الكريم والسنة النبوية الشريفة وقد قال جل وعلا : ﴿**وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾[1] ، وإذا قارنا واستحضرنا وجوب هذه الذكرى وفرضية طلب العلم واستمرارية الدعوة لها نعلم علم اليقين أن هذه النفس البشرية تحتاج إلى التزكية والتوعية بصفة مستمرة تلقيا وأداء ، إيمانا وعملا .

وتكون التربية على الوجه الذى ذكرنا وبالنفس الذى وضحنا والطريقة التى أشرنا أرقى نمط للتربية الحضارية الصحيحة وهى لعمرى بعض ما يقتبس من قوله تعالى : ﴿**ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها**﴾

آيات تعتبر بحق دستورا قيما ومعلمة مفيدة لرسم منهاج التربية ومسار القدوة .

بالإضافة إلى ما فى أسلوب القرآن الكريم بخصوص دعوة التذكرة والموعظة الحسنة وما تستوجبه من تعليل وتوضيح وتمثيل ومناقشة كيسة مؤدبة لا جدال فيها مع وجوب تخلق الداعى بالخلق الحسن « خلق القرآن » حتى يكون احكام الربط وتوثيق الصلة فى لغة التخاطب وحركية المعاملات المثمرة هى التى تسوى فيها العلاقات ويستقيم بها الفهم ويحسن بواسطتها التفاهم وذلك بإلهام

---

(١) سورة الذاريات/٥٥ .

النفس وتقواها وفلاحها وتزكيتها .

فالتربية الإسلامية الصحيحة سليلتها زكاة النفوس وتقواها لتدريب الحواس وتعويدها الحق قولا وعملا فترشد الأفهام ويستقيم السلوك وتحسن العاقبة ويكون الفلاح .

ولله الأمر من قبل ومن بعد .

تصويب نظر

كان نقد القرآن الكريم للمجتمع الجاهلى نقدا بناء هادفاً يعتمد التوحيد المحكم ويدعو للعمل الصالح الذى يبعث فى الصنفين البشريين قوة وحزماً ، ويكون فى مجموعهما روح الفضيلة حتى يتحابا ويتعاونا ، لا نقداً يعتمد التفاضل والتفاخر ويدعو للغلبة والقهر أو الإنتقام والثأر . فالقرآن إن أنصف المرأة فهو لا ينقص من شأن الرجل ولا ينال من قيمته ، وأن أكرم الرجل فهو لا يقر اهانة للمرأة ولا يسمح باستضعافها ولا بالاستعلاء عليها . وكان ذلك النقد معتمداً النظر الثاقب المتكامل فنراه عند تناوله لمشكل تقييم إنسانية المرأة بحث السبب الأساسى الداعى للقهر والغلبة . وذكر خلط المفهوم وسوء التقدير الناتج عن عدم إدراك الحق وسوء التصرف . وبين طرق علاج تلك الأوضاع المتعفنة ، فاستعمل للوصول إلى الغاية أساليب مشوقة متنوعة تختلف باختلاف المواقف ، فكان التساؤل والاستقراء والتتبع والاقناع والتوجيه والوعد والوعيد حتى ترجع النفس المؤمنة إلى ربها راضية مرضية .

(أ) أسباب احتقار الجاهلى للمرأة :

وضح القرآن الكريم أن الأسباب التى دعت الرجل الجاهلى لاعتبار الأنثى دونه فى القيمة الإنسانية منشأها خلطة المفهوم اللغوى

واساءته فى تسميتها ، فمرة يصنفها فى الملائكة ومرة يلقب بها صنماً يعبده ويتضرع له لقضاء حاجاته . فكلمة أنثى عند العرب تدل على معان مختلفة تتفاوت فى القيمة الإنسانية والاجتماعية فهى مرة تطلق على كل ما اتضع فى المنزلة وانحط فى القدر ، وآونة أرادوا بها آلهتهم ، فقد روى عن الحسن البصرى :

«انه كان لكل حى من أحياء العرب صنم يعبدونه وينادونه لحوائجهم ويسمونه أنثى فلان لأنهم يجعلون عليه الحلى وأنواع الزينة كما يفعلون بالنسوة» . ومرة ثالثة أطلقوه على الملائكة التى يعتقدون أنها مخلوقات ممتازة عن كل أصناف المخلوقات الأخرى . وهذه آيات خمس تعرض اضطراب العرب فى المفهوم وخلطهم فى التقدير والتسمية . قال تعالى : ﴿**إن يدعون من دونه إلّا إناثاً وان يدعون الا شيطاناً مريدا**﴾ [1] . ﴿**أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً**﴾ [2] . ﴿**ألكم الذكر وله الأنثى**﴾ [3] . ﴿**ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون**﴾ [4] . ﴿**إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى**﴾ [5] . فهذه الآيات الخمس تذكر كلمة (أنثى) وتعلن أن المراد بالانثى هم البنات وتتعرض لخطأ الجاهليين فى التسمية ، فالمقصود بالانثى فى الآية الأولى الصنم الذى يعبد ، وفى الآيات الثلاث التى تلتها نسبوا فيها الملائكة للأنوثة . والآية الخامسة

---

(١) سورة النساء/١١٧ . (٢) سورة الاسراء/٤٠ .
(٣) سورة النجم/٢١ . (٤) سورة النحل/٥٧ .
(٥) سورة النجم/٢٧ .

تبين أن الذين لا يؤمنون هم الذين يسمون الملائكة تسمية الأنثى كان ذلك منهم خلطاً واضطراباً فى المفهوم والدلالة قادهم حتماً إلى اضطراب عقدى أخطر.

كما تذكر هذه الآيات أن أسباب احتقار الأنثى منشؤه ضلال فى الاعتقاد حيث أن الجاهلى يعبد أصناماً مؤنثة كاللات والعزى ومناة ، فهو يتعبد بعبادتها ، ودعوته تلك دعوة للشيطان العاصى لأوامر الله عزّ وجلّ غير المستجيب لحاجاته التى يدعوها ويتضرع لها من أجل قضائها . ثم ان ادعاء المشركين بأن الله خصهم بالبنين واتخذ لنفسه الملائكة التى هى اناث افتراء وسوء أدب فى حقه تعالى ، وانه لقول عظيم توعد الله قائله إذ هو ـ جلت قدرته ـ فى غير حاجة للأنثى التى فيها حاجة الذكور من البشر.

وتلك الآيات تؤكد أن المشركين جعلوا لهم الذكور وخصوا الله بالأنثى وجعلوا لله البنات اللاتى لا يرغبون فيهن ، ويخصون أنفسهم بما يشتهون . وهذه الدعاوى باطلة صادرة عمن لا يؤمن بالله واليوم الآخر .

وهكذا كان من المشركين الخلط فى تقييم الأنثى قيمتها الحقة بقدر خلطهم فى تسميتها وتبين مدلولها ، ونتج عن ذلك ضلال الاعتقاد وسوء الأدب فى حقه جلّ وعلا .

والأنثى إذا سلمت من الوأد لا تبلغ منزلة الذكر فى الحقوق والواجبات فهى لا تصلح لسدانة البيت ولا يتوقع منها أنها ستبلغ مقاماً كريماً عند الله . وهذا الوهم توارثته المجتمعات حتى كاد يصبح حقيقة ذكرها الله تعالى فى قوله : ﴿**فلما وضعتها قالت رب إنى**

وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وانى سميتها مريم﴾ [1] .

ولكن الله كرم مريم هذه وجعلها أماً لنبيه ورسوله عيسى عليه السلام . وخفف بذلك من حسرة وحزن أمرأة عمران ، وتقبلها قبولاً حسناً ، وأنبتها نباتاً طيباً ، ورفع ذكرها ، وجعلها ضمن عباده الصالحين المقربين ، وأعطاها مزايا كثيرة ، وخصها بما لم يتأت لغيرها من رجال قومها . وفى هذا تنبيه إلى تغيير ما انغلفت عليه أذهان الناس فى المجتمعات من اعتقاد أن الأنثى لا يمكنها أن تبلغ مرتبة القربى من الله والتخصص فى عبادته .

تعرضت آية كريمة فى سورة النحل إلى تحليل اضطراب نفسية الجاهليين عند إقدامهم على وأد الوليدة ، فكشفت عما يخامرهم من هواجس عندما يبشرون بالأنثى وما يصيبهم من الغم وكيف تمتلكهم الحيرة .

﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب﴾ [2] .

ولعل كراهة الجاهلى للأنثى التى بشر بها متأتية من الأثر السيء الذى يظهر فى عمل من ولدت له أنثى ، لا أنه كره لها بدليل اعتقادهم أن الملائكة أناث ، وأن الله اصطفاهن : وإنما كرههم للمولودة ربما كان لأسباب منها خشية الإملاق ومقتضيات الحرب

---

(١) سورة آل عمران/٣٦ . (٢) سورة النحل/٥٨ ـ ٥٩ .

من أسر ودفاع وكسب للرزق مما توجبه حياة الجاهلى فى السلم والحرب .

فالأنثى لا تستطيع جلب الكسب ، ولا تقوى على الدفاع وحمل السلاح ، وقد تبوء بالهضم فتكون أسيرة عند الغزو ، فهذه النفس التى نراها مرة تجعل الأنثى معبودة ، ومرة تكون عندها ملائكة ، وثالثة تشمئز من نسبتها لها ، ورابعة يسود وجه من يبشر بها ، وتراه يتوارى من القوم أيمسكها على ذل ومهانة أم يتخلص منها بمواراتها التراب وهى على قيد الحياة ، هذه النفس لا تكون إلّا قلقة مضطربة لا تطمئن لإبقاء الأنثى ولا ترتاح للتخلص منها .

(٢) تصويب النظر وبيان طرق العلاج :

عرض القرآن الكريم الصور التى تبرز اعتداء الجاهلى على الأنثى مما أدى إلى سلبه حقوقها الإنسانية والاجتماعية ، فقد نالت منه الوأد وليدة ، وحرمت الإرث اختاً وأماً ، وسلط عليها الظهار والايلاء والعضل ، واعتبرت ارثاً كما يورث المتاع إن فقدت زوجها .

الوأد : الوأد لغة هو مواراة الوليدة التراب ودفنها فى القبر وهى على قيد الحياة . وهذا ما كانت تفعله قبيلة كندة وقبائل أخرى من العرب عند توهمهم مخالفة العار الذى ربما تجلبه لهم الأنثى . وتتجرع مرارة عاقبة هذا الوأد أسرة بأكملها أب وأم ووليدة ، فالأب يظهر ألمه فى اضطرابه وحيرته بين الإقدام والامساك ، والأم بحرمانها من فلذة كبدها ، والموءودة بالاعتداء عليها وحرمانها من نور الحياة دون أى جرم اقترفته . وقد أنكر الإسلام على العرب هذا السلوك ،

ولفت أنظارهم إليه لقوله تعالى : ﴿**وإذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت**﴾[1] . ولا يخفى ما فى هذا القول من تشنيع يبين لهم سوء عملهم ومدى ظلمهم وتعديهم ، فهو خطاب للضمير الإنسانى وتحريك لعوامل الخير والرحمة فيه .

الارث والعضل والقسامة [2] :

نقل عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا مات وترك جارية ألقى عليها حميمه ثوبه ومنعها من الناس ، فإن كانت جميلة زوجوها ، وإن كانت دميمة حبسوها حتى تموت فيرثوها ، ونقل البخارى قال : كانوا إذا مات الرجل فإن أولياءه أحق بزوجته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاؤوا زوجوها وإن شاؤوا لم يزوجوها فهم أحق بها من أهلها .

﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلّا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً**﴾[3] .

نهى سبحانه وتعالى عن ارث المرأة وعضلها حتى تستقيم الأمور وتتحسن العلائق بين الجنسين فى ذلك المجتمع الإسلامى المتطور ويحل بينهما محل الكراهية والاستنقاص المعاشرة بالمعروف وينتبه كل

---

(١) سورة التكوير/٨ ـ ٩ .
(٢) الارث : صيرورة مال الميت إلى وارثه ـ العضل : منع المرأة من الزواج قصد التضييق عليها .
(٣) سورة النساء/١٩ .

منهما إلى تقييم القيم الإنسانية بتقدير حقيقى لا وهمى تعسفى .

ومن غريب نظام الجاهليين : القسامة وهى أن يجعلوا ما فى بطون أنعامهم من الحمل لذكورهم محرماً على اناثهم أما إذا سقط الحمل ميتاً فهم فيه شركاء . ولتبرير هذا السلوك المشين والظلم الذى لا مبرر له ادعوا أنه شريعة منزلة من الله فتوعدهم جل وعلا فى هذه الآية :

﴿وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم﴾[1] .

الظهار والإيلاء :

الظهار هو أن يقول الزوج لزوجته : أنت علىّ كظهر أمى وهو منكر من القول وزور ، حرمه الله لما فيه من اعتداء على أنوثة المرأة إذ الزوجة لها حق على الزوج كحقه عليها . فهو إن جعلها بمكانة أمه أى حرم الاتصال الجنسى بها ـ على عادة الجاهلين ـ كان ذلك اضراراً بمصالحها . قال تعالى : **﴿ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل﴾**[2] .

وقال تعالى : **﴿قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع عليم﴾**[3] .

---

(١) سورة الانعام/١٣٩ . (٢) سورة الأحزاب/٤ .
(٣) سورة المجادلة/٢ .

وقال تعالى : ﴿**الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلّا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور**﴾[1] .

وقال : ﴿**والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير**﴾[2] .

والإيلاء : قسم يحلف به الزوج على أن لا يتصل بزوجته جنسياً ، وهو صورة من صور الاعتداء على الزوجة ، قال تعالى ، ﴿**للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاؤوا فإن الله غفور رحيم**﴾ أقر القرآن الكريم عدم التفرقة بين الجنسين وقد أنشئا من طينة واحدة فوجه نظر كليهما إلى الأصل الذى تفرعت عنه المجموعة الإنسانية الواحدة فجعل الأنثى شريكة الذكر ، ومنهما تعددت القبائل والأمم وانتسب جميع أفرادها بالنبوة فكان الرجل أباً ، والمرأة أماً . قال تعالى :

﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[3] . ولفت انتباه الجميع إلى وجه التفاضل الحقيقى بينهم قال تعالى : ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً**﴾[4] .

---

(١) سورة المجادلة/٢ .　　(٢) سورة المجادلة ٣ .
(٣) سورة الحجرات/١٣ .　　(٤) سورة النساء .

أقام القرآن أسساً قوية لبناء مجتمع فاضل ، ينعم فيه جنسا البشرية بمكارم فضلهما الله بها عمن سواهما حتى تتم خلافة الله فى أرضه . وبذلك قضى على أصل الخلاف إذ لا فرق فى الإنسانية بين ذكر وأنثى حتى تنشأ الحياة فى المجتمع الإسلامى الجديد وتكون المرأة فى أمان من الوأد والارث والعضل والظهار والإيلاء يحنو عليها الأب ويقدرها الأخ ويجل شأنها زوجها وأهله تتمتع بحقوقها فى جو أسرى واجتماعى مثاليين دعا لهما القرآن بما فرضه من حقوق عامة وما سنه من تكاليف شرعية تضمن عدالة اجتماعية وترفع من مستوى الجنسين الرجل والمرأة حتى يتحقق هدف التكليف ويتم معنى الجزاء والعقاب .

وقد بينت الآيات المتقدمة إنسانية المرأة وقيمتها تقييماً حقيقياً حيث أحكمت القول فى هذا الموضع لشمولها جوانب مختلفة فبينت خلط التسمية وضلال الاعتقاد وسوء الظن بالأنثى ، وحرمت ظلمها والاعتداء عليها ، وأقامت مكان الاستنقاص والاحتقار نظرة الثقة والعناية والتقدير ودعت إلى إعمال الرأى فيما يدع الإنسان وما يقرر القيام به من أعمال ، وبينت كيفية إقامة أسس التعامل بين الجنسين وبنتها على دعائم ثابتة جماعها تقوى الله فى نفس الزوجة والبنت والأخت والأم وجعلت الواجب الأول على الإنسان ذكراً كان أم أنثى شكر الله عزّ وجلّ على ما أنعم به عليه من نعمة العقل ، الشيء الذى يهيىء له عيشاً هادئاً كريماً يختلف به وضعه عن وضع الحيوان ومن يشابهه . ومما ينطق بتكامل كل عناصر المجتمع وتعاونها وانسجامها فى المجتمع الإسلامى الجديد قول الرسول الأكرم محمد

ﷺ : **«مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»**[1] .

وان المصالح التى اعتبرها الشارع ضرورية وأوجب على الإنسان المحافظة عليها وهى أصل التكليف وهدف التشريع لهى حفظ الدين والنفس والعقل والنسب والمال[2] . وهذه المصالح معتبرة بالنسبة لكل فرد فى المجتمع الإنسانى لا فرق بين ذكورهم واناثهم .

---

(١) النووى : رياض الصالحين ١ : ٢٠٤ ـ ٢٢٣ .

(١) الشاطبى : الموافقات ١ : ٣٨ .

أثر الإيمان فى تكوين الشخصية

يعتمد الإسلام أساساً على غرس عقيدة الإيمان بوحدانية الله الواحد الأحد المنزه عن الشريك ومعنى التشريك ، فأقام بهذا التصور مبدأً تأسيسياً سامياً يبعث فى الإنسان المسلم كرامة ذاتية وحماية كاملة من ذل التبعية لغير الخالق ، وتحفظه من غلواء الاستعلاء البشرى وغطرسة الأنا والقوة الإنسانية الغاشمة .

ولقد قضت الدعوة الإسلامية فى سبيل إقرار المبدأ زمناً غير قصير ـ نسبياً ـ لتقيم فى النفوس تصورات هذا المبدأ الذى هو أساس لاعتناق الفرد أسمى الفضائل وبه يتهيب من فعل الرذائل .

اعتبر الإسلام قضية الإيمان قضية جذرية أساسية تقوم عليها بقية الأسس والمبادىء المحققة لماهية الإسلام ديناً ودولة حيث يراها منطلقاً وغاية : للفرد فى حياته الخاصة وللجماعة فى نظامها الحضارى .

فعندما تكونت الدولة الإسلامية فى السنة الأولى من هجرته ﷺ ظهرت معالم شخصية المسلمين من الذين هاجروا معه أو الذين ناصروه فى المدينة المنورة ، فإنهم آمنوا بالحق واعتقدوا وحدانية الله بكل صدق فبرزت للعيان مظاهر هذا الإيمان ، باتباعهم خطوات النشأة والتأسيس ، وأدركوا الأهداف السامية له

واقتنعوا بجدوى الغايات فتحملوا عبء تلقيها واكتمالها وصيانتها ابتداء وتجرعوا مرارة المقاومة وترهات الكفار تحملاً نادراً ، وصمدوا عند نشر الدعوة وبذلوا النفس والمال وكل ما يمتلكون وفارقوا الأهل تلبية للنداء ، فكانوا النواة الأولى لإقامة أسس الدولة المسلمة . فجسموا بذلك معانى المبادىء واقعاً وحساً ، وكانوا نماذج للإنسانية فبدا لها سموّ تلك العقيدة إذ بهم صح صحيحها ، ومن أعمالهم برقت نصاعة الإيمان الحق . ووضح للناس جلال الاعتقاد وبُعد أثره فى العمل من أجل الخير والمصلحة العامة فتبينت سماحة تطبيق تلك المبادىء وروعة تلك الغلبة الآمنة المؤمنة .

وكان من بين أعظم آثار الإيمان فى نفوس المؤمنين الأوائل تغير المفاهيم الجاهلية فى المجالات العقيدية والسلوكية ، فردية كانت أو اجتماعية مما أوجد تبدّلاً تاماً فى الشخصية بأصنافها الفردية والنوعية ، والتكاملية ، والاجتماعية فبعد النظام الجاهلى الذى كان يعتمد القبلية والعنصرية والتفرقة والثأر والبغضاء والحمية الجائرة وطغيان الشهوات على العقل والقانون ، هيأ الإيمان نفوس الناس لمعانى الحضارة والإنسانية والوحدة والعدل والتآخى وقبول سلطة القانون الإلهى العادل النزيه .

ويتركز هذا المبدأ الاعتقادى التقويمى استقام بناء هيكل الإنسانية فى إطاره السمح ، وارتكز على أسس التكامل والتعاون ، فاستفاد المجتمع من الالتئام وانتفع من المنهجية التجديدية ، التى ترفض الجدال القائم على المقايسات الشكلية

المادية ، والتفاضل المظهرى السطحى . وتدعو إلى الاستدلال بمقايسات عميقة وتفاضل حقيقى يقوم على درجة الخير والمصلحة الإنسانية ومستوى التعاون والهداية والعمل الصالح .

ومن الجائز لنا أن نقول : أن أهم الفوارق بين الإنسان الجاهلى والإنسان المسلم ـ بعد اصلاح العقيدة ـ ما أثر به هذا الإيمان فى الشخصية ومكوناتها .

إذ بالإيمان يستقيم السلوك العملى فيصلح الجسم بنظافته وصيامه وامساكه عن المسكرات والأغذية الضارة والقذرة .

وبالإيمان تهدأ النفس وتجد قرارها العقائدى فتكبح جماح شهواتها وتتغلب على عوامل الشر والحسد والصراع المادى وتأبى الظلم والخضوع لغير الله مقبلة على كل خير ، منصرفة عن كل انحراف وشرور .

وبالإيمان تنشأ المجموعة المؤمنة فى ظل حياة حضارية تعتمد ثقافة واسعة الأرجاء ترتكز على الأصول الأخلاقية ومفهوم الخير وتنشأ الحركة العملية التى تعمل لصالح الإنسان وتسخير خيرات الكون له .

فباستقامة البدن ، والنفس . والبيئة الثقافية الفكرية تتكون الشخصية . ولا يخفى ما للإيمان من دور فى إصلاح هذه العوامل الثلاثة فما من شك حينئذ فى بعد أثر الدين فى تكوين الشخصية الإسلامية ورسم معالمها .

إنه من الطبيعى أن يلجأ المجتمع البدائى إلى الاعتماد على قوة العضلات وحد السيف للسيطرة والامتلاك . ومن الطبيعى أن

يجتمع أصحاب القوى الجسمية الطبيعية ـ من البدائيين ـ ليمتلكوا أصحاب الرقة الجسمية والمستضعفين فينشأ قانون جائر يمتلك فيه القوى زمام السلطة على المجتمع والعائلة وكل ضعيف ومستضعف ، ويصبح النظام قائماً على القوة المادية ، والحق تابعاً للبطش والقدرة عليه . وعلى هذا الأساس ظهرت التفرقة بين الذكر والأنثى والأبيض والأسود والعربي والأعجمى ، تلك التفرقة التى أقامها الجاهليون باطلاً وجهلاً باستعمالهم مقاييس جائرة اثبتوا بها أفضلية جائرة ما أنزل الله بها من سلطان .

هذه الأصول الفاسدة هى التى اقتضت التفرقة المجحفة بحق الكثيرين فخدشت كرامة البشرية ، ومست بكيان الإنسانية وسحقت الشخصية الفردية ، فشلت تبعاً لذلك الحركة ، واستنقصت الأدوار الاجتماعية .

ويأتى الإسلام ليضع أسس الإيمان والعدل والخير فيصبح مدعاة للأمن النفسى والاستقامة الفكرية ، ويهيىء النفس لأن تدرك معانى الالتزام والانضباط ، ويرسم الخطوط الكبرى لتخليص شخصية الإنسان مما كانت تتكبده من عوامل المسخ والانتقاص فإذا بخطاب الله تعالى يتجه إلى الناس كافة رجالاً ونساء ـ على حد سواء ـ فيشتركان فى كل آيات الدعوة ، والهداية ، والاعتبار ، والتكليف والأمر والنهى ، ولا يختص واحد منهما بشىء إلّا فى ما لا يتطابق مع خصوصيات خلقه وتكوينه واستطاعته .

وتضمن الآيات القرآنية حقوق الإنسان المؤمن فى جميع أطوار الحياة وتعرف الناس بالقيمة الحقيقية كما تخصهم بعظيم الشرف

وبالمكانة الممتازة عند الله إذا صلحت أعمالهم .

وتمنع الآيات القرآنية عن الإنسان المؤمن كل أنواع الاذاية بالقول والعمل ، فتحرم القذف والنيل من الكرامة والشرف . وتمنع الوأد والقتل والضرب والتعذيب وتمكن الفرد من حريته التامة فى نفسه وماله وأهله ما لم يتجاوز حدود الله التى حددها فى شريعته وبينها فى خلق الإسلام .

بهذه التشريعات الحكيمة والقوانين العادلة تغيرت صورة الشخصية الإنسانية فى الجماعة المسلمة ، عما كانت عليه فى العهد الجاهلى . فقد عرف الإنسان المسلم حقاً خطر وفساد التسيب الأنانى ، وشر التهور العاطفى وما يصيب الإنسانية من غلواء التعالى وسيطرة التعاظم وضرر الشعور «بالأنا» واستضعاف «الآخر» فدلته مصادر إيمانه إلى أن الله تعالى أكسب الإنسان المؤمن شخصية إسلامية متميزة بالاستقامة وضبط الهوى على أساس التقوى والعمل الصالح .

قال تعالى : ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾[1] .

وهكذا وضعت الآيات القرآنية الكريمة الملامح العريضة والخطوط الكبرى للشخصية المسلمة ، ويأتى عمل الرسالة النبوية ليبين للناس ما ورد فى الكتاب : ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس**

---

(١) الحجرات/١٣ .

ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾[1] .

وليوضح ما فى هذه الشخصية من دقائق ويطبق عليها ما فى القرآن من أحكام فكان الإنسان المؤمن فى عهد الرسالة المحمدية ـ مكرماً برسالة الإيمان متحملاً لأمانة التصديق بالدين الجديد .

وكيف لا يكون المؤمن عضواً متحركاً نشيطاً فى مجالات التصديق والدعوة وغيرها من مراحل نشر الدين والدفاع عنه ، ألم تكن الآيات القرآنية قد وضحت معالم الشخصية الإسلامية وأبرزت خصائصها وأقرت الحقوق والواجبات ؟ فغيرت بذلك نظرة الإنسان لأخيه الإنسان وغيرت ما رسب فى النفس من شعور بالنقص وتعود بالتبعية أو احساس بالتعاظم والكبرياء .

كانت الرسالة فى حاجة إلى كل القوى الحية وكل عناصر المجتمع وكل إمكانيات المسلمين .

إذ كانت الدعوة الإسلامية لاصلاح الجميع رجالاً ونساء .

وكان النداء والتكليف لها معاً .

وكان واجب العمل مفروضاً عليهما معاً .

وكانت الحاجة إليهما معاً .

وكان ما عليهما معاً من أجلهما معاً

فلزم أن يقوم الناس جميعاً بعمل مشترك ليستمسكوا بعروة الله الوثقى التى لا انفصام لها ، ويستجيبوا جميعاً لما يفرضه الإسلام عليهم من واجب التصديق والمحافظة والتبليغ . فكان الذى قام به

---

(١) النحل/٤٤ .

الإنسان المسلم فى هذه المرحلة الإسلامية الأولى (مرحلة الإيمان) أثمن الفرص التى برزت فيها الشخصية الإسلامية ومميزات ذاتها ، التى ظهرت فى جميع مراحل هذه الفترة وخاصة منها :

- مرحلة الإقبال على الدين والإيمان به .
- مرحلة تحمل أذى الكفار وعذابهم .
- مرحلة المبايعة والتعهد .
- مرحلة الهجرة ورسم معالم الدولة .
- مرحلة المناعة والجهاد لحماية الدين ونشره .

والمتبع لخطوات الرسالة المحمدية فى تسلسل أحداثها ـ مكاناً وزماناً ـ والمنتبه لآثارها الملحوظة فى ما حوته كتب الحديث والسيرة والتاريخ الإسلامى يلاحظ ما كان للمؤمن ـ فى حياة الإسلام الأولى ـ من شخصية إسلامية مميزة جعلته عضواً فعالاً مشاركاً فى كل مراحل مسيرة الإسلام إبتداءً من قضية الإيمان وإنتهاءً بفترة الفوز والاستقرار .

المرأة والرجل ... والنفس والواحدة

إن آفة إبلاغ العلم فى عصرنا تكمن فى التشكيك . اعتماداً على ما فى الجدلية من مراوغة لابتلاع انصاف المثقفين وأشباه الجهال الذين تبتلى بهم الأمم فى كل مكان وزمان . فيكونون حرباً على أممهم ووبالاً على مجتمعاتهم حيث يمسكون معاول الهدم ليخربوا القيم ويدمروا الأخلاق الأصيلة والمثل العليا السامية . حيث تراهم يقفون مواقف الانهزام والتخاذل ساعة نداء الواجب والجمود والتطرف ساعة ظهور مصلحة للأمة واضحة فى أفقها . وما حملهم على ذلك إلّا انطوائية رافضة لكل تجديد وبذلك تراهم يخوضون معارك القول والاستدلال دون عمق معرفة أو دقة بحث .

الشـــك .... والتشكيك :

وإن كان الشك طريق الوصول إلى اليقين وسبيلاً من سبل المعرفة الدقيقة فإنه شتان بينه وبين ما يعنيه التشكيك .

فالشك طلب للعلم ووسيلة لإقامة التجربة العلمية وجسر موصل للحقيقة الحقة بينما التشكيك تضليل وبهتان وتمييع للمعرفة وذبذبة للأخلاق وتخدير للأعصاب وحرب على النفس وفتنة على الأهل .

وواجبنا جميعاً يفرض علينا نفض غبار التضليل وإزالة معالم التزييف لأن مقولة صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان تكمن فى

تغيير أساليب التربية ومناهج المربين لتصحيح مفاهيم العامة وإمكانية الرد على ترهات المتخاذلين والمتخرسين الشاكين والمشككين حتى تتم المحافظة على جوهر الدين ولبه وبذلك يستقيم معنى تطويع وقائع الحياة اليومية وقضاياها والباسها لباساً دينياً ليس بالشفاف المائع ولا بالغليظ المتحجر .

الرسول .. والمرأة فى يوم عيد :

جاء فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ فى أضحى أو فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال : **يا معشر النساء تصدقن فإنى اريتكن أكثر أهل النار** فقلن وبم يا رسول الله ؟ قال : **تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن** . قلن وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله قال : **أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل** قلن : بلى قال **فذلك من نقصان عقلها ، اليس إذا ما حاضت لم تصل ولم تصم** ؟ قلن بلى . قال **فذلك من نقصان دينها)** .

هذا الحديث الشريف يستدعي من المفكر النزيه وقفة تفسيرية يربط بها الأطراف ويستوضح الغاية ويستجلى القصد . ليحول دون مقولات جردت بعض ألفاظ منه واستغلت بعض تراكيبه للحط من قيمة المرأة كإنسان فى الإسلام . وانزالها إلى حضيض المنزلة فى التركيبة الاجتماعية وإقامة هوة سحيقة بين الجنسين تسيء للفهم الحقيقى للدين القيم .

الفهم السليم يقتضى اعتبار المكان والزمان :

فاعتبار مكان التوجه بالخطاب وزمانه وظرفه والاستفسارات التى احتواها والإجابات والتحليلات التى بينها ﷺ كلها اقتضاها الوضع واستلزمها مقتضى الحال . فالمكان المسجد والزمان عيد اضحى أو عيد فطر والغاية طلب الغفران والتكفير عن الذنوب المقترفة بالصدفة أما الشرح فهو متناول لقضايا إسلامية إنسانية عامة فى جوهرها ومبين لصفات بشرية يكثر وجودها عند المرأة من حيث النفسية لا غير وهذا لا يؤدى أبداً إلى إثبات ما يريدون إثباته فى المفاضلة بين الذكر والأنثى بل هو دعوة لحسن المعاشرة ولفت نظر لمراعاة حق العشير بالكف عن اللعن والتولى عن كفران النعمة وتكفير عن كل ذلك بأداء الصدقة والاكثار من التصدق .

حوى هذا الحديث الشريف الإخبار والاستفسار والشرح والتعليل فأما الإخبار فمفاده أن رسول الله ﷺ تمت له الرؤية واطلع غيبياً على أن أكثر أهل النار هن النساء وما ارتياد المرأة النار إلّا لأنها قامت بأمر يحظره الدين ويمنعه خلق القرآن يغضب الرب ويؤذى العشير ويسىء المعاملة .

وهذا العمل يورط صاحبه ويدخله النار رجلاً كان أم أمرأة فدخول جهنم بسبب القيام بالمحظور لا من أجل كونها امرأة . أو لأنهن نساء . ولذلك أيضاً كان منهن الاستفسار (بم) لا (بلماذا) لأن دخول النار كان بسبب ما تقتضيه أحكام الشريعة حسب نصوص القرآن والسنة وتوجيهاتها السليمة وأما الإخبار الثانى الوارد فى الجزء الثانى من الحديث الشريف فهو توضيح لخصوصية تختص بها المرأة

وتوعية خلقية تتصف بها أكثر من غيرها . الا وهى عاطفتها الشديدة . وقوة تأثيرها بها على الغير وتأثرها بالغير . لرفاهة حسها . ودقة مشاعرها هذا من جهة ومن جهة أخرى خصوصية فى خلقة المرأة وتكوينها الفزيولوجى حيث يعتريها : الحيض فى دورات معلومة .

فأما قوة العاطفة وشدة التأثر والتأثير اللتين بهما تكون أقدر على سلب لب الرجل لذا فشهادتها نصف شهادة الرجل فى الأقضية الجنحية لخطورة المواقف وارادة تجريد الحق وصيانته عن ملابسات التأثير والتأثر . وذلك هو المقصود حسب ما يقتضيه الحال من الحديث بنقصان عقلها .

أما خصوصية خلقتها وتكوينها الفزيولوجى وتخليها عن الصوم والصلاة فترة من الزمن فهو مفاد نقصان دينها . فهل بعد هذا التوضيح والبيان من شك واسترابة فى إنسانية المرأة ومساواتها للرجل فيها . ألم يجعل لها الإسلام نفس الحقوق ... ألم يفرض عليهما نفس الواجبات والفرائض .. ؟

النفس الواحدة ... وحدة فى الحقوق والواجبات :

فهل هناك أقوى حجة وأوضح بياناً وأبلغ كلاماً من قوله تعالى **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تسألون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾**

---

(١) سورة النساء الآية (١) .

فهل بعد هذا من شك وريب ... ؟ وهل من مقتضيات المنهجية العلمية أو التدين الصحيح اعتبار الحديث الشريف مصدر ادعاء للمفاضلة بين الجنسين اللذين اتحدا فى الخلقة وتساويا فى الحقوق والواجبات اعتماداً على نصوص شرعية ثابتة الورود والدلالة ؟ ولا يسعنى إلّا أن أختم قولى بالدعوة العادلة : اللهم إن الدين القيم والعلم اليقينى براء مما يدعون وبالله التوفيق أولاً وآخراً .

تكامل وتعاون .. لا مساواة وتناحر

لقد خلق الله الإنسان على أحسن تقويم وركب فيه الغرائز ومزج فيه بين الروح والمادة وميزه على غيره من المخلوقات وسخر له ما سواه من الموجودات وجعلها تحت تصرفه ومحل استفادته ﴿**هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً**﴾ سورة البقرة .

كل ذلك لتتم له الخلافة فى الأرض ويتيسر له معنى تعمير الكون ويكون سببه الازدهار والنمو الدنيوى . ذلك هو الإنسان الذى لو تعلقت همته بما وراء هذا الكون لبلغه وناله بما ركبه الله فيه من تنوع قدرات جهدية وبما منحه من طاقات ذاتية وبما جبله عليه من استعدادات فطرية للتوق نحو الأفضل .

لقد جعل الله الإنسان الذكر والأنثى سواء على أحسن تقويم وافرد كلا منهما بخصائص ومميزات تتلائم مع حاجيات كل جنس منهما وهى التى تبرز حقائقه وتكون ذاته فكان هذا الإنسان ولازال محل الإشكال يكتنف الغموض جوانب كثيرة منه أو هى تتطلب البحث والنظر المتجدد ﴿**فلينظر الإنسان مم خلق**﴾ . سورة الطارق ، النظر من حيث خلقته وتكوينه .. ﴿**وفى أنفسكم أفلا تبصرون**﴾ .. سورة الذاريات محل البحث تنتاب النفس من هواجس وأفكار ﴿**ونفسٍ وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها** .

﴿**قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**﴾ سورة الشمس .

يتطلب النظر والاستفهام والتطلع فى علاقات الإنسان بالإنسان وما يسوق من فجور وفلاح يحمل من طياته ازدواجية فى التركيب وتنوعاً فى الأجهزة وتضارباً فى الأحوال النفسية وتكاملاً فى الذات والروح فكان الكائن العجيب محل الدراسة والبحث فى مختلف فنون العلم ومجالات مواده الواسعة اللامتناهية .

وإذا كان الإنسان الواحد يمثل هذا الميدان الفسيح الأرجاء من التكوينات الجسدية والعضوية والتصورات البعيدة الحسية والمعنوية المتمثلة فى عواطفه ومشاعره وأفكاره وطموحاته وآماله ـ فكيف به يلتقى مع إنسان آخر مثله قد يحمل ما يحمله ويحس ويشعر وقد تتفق وقد تختلف أن مثله نوعاً ومفارقاً له جنسياً يحتم الواقع التقاءهما وازدواجهما ليحفظ للكون ناموسه ويتم للإنسان معنى التجدد والبقاء ﴿**سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ..﴾ سورة يس .

وهنا يجدر بنا أن نستوقف قليلاً حتى نتبين طبيعة الجنسين وينعما معاً بالتعايش وما يقتضيه وما يتضمنه من مواقف الاختلاف والتغير والائتلاف والتساوى وما يقتضيه معنى التكامل وما يفرضه واقع التزاوج فعالم العلاقات الاجتماعية وتعايش الأفراد ضمنه يتطلب دراسات واحصائيات عريضة شاسعة قد يؤدى منا إلى نتائج تثلج الصدر لكننا نأخذ فى هذه العجالة الموضوع فى نطاقه الضيق نطاق الأسرة وفى دائرة علاقة الأنثى بأخيها فى الإنسانية وما تقتضيه هذه العلاقة بالخصوص من اختلاف وائتلاف من تنوع فى العلاقة واتحاد

فى الغاية حسب ما يحمله تركيب الجسم نفسه من اختلاف وائتلاف .

البيت الذى يضم الأب والأخ والزوج تكون حاجياتنا نحن الأمهات والأخوات والزوجات إليهم ليست كحاجاتهم إلينا وإن كانت غاياتنا واحدة وآمالنا تهدف إلى وجهة واحدة .

فحاجاتك لأبيك كبنت تختلف تماماً عن حاجتك لأمك وحاجتها إليك قد تختلف وقد تتفق وهذا الأخ تنشئين معه وتترعرعين بجانبه وأنت تطلبين منه غير ما يطلبه منك وكثيراً ما ترومين توحيد المطالب والحاجيات فيكون التشاكس والتطاحن والتفرقة وهذا الزوج تساوين خلقه نوعاً وتخالفينه تركيباً وحاجة وبدون هذا الاختلاف فى الحاجيات لا يكون تكامل ولا يتم معنى التزاوج والتعاون ولا يعنى هذا أننا نسعى إلى إقامة فوارق بين الجنسين وإلى تشجيع ما يقصدونه من دعوة للمساواة وإنما نحن ننشد إلى سبر غور ما تؤدى إليه هذه التسوية الكلية العمياء من تعطيل لعجلة الزمن وتحطيم لخط السير الطبيعى الذى ظهرت بوادره فى تعكر نقاء علاقة الذكر بالإنثى واضفت عليها نوعاً من الخشونة والصلابة أحياناً والرعونة والانحلال أحياناً أخرى والهجنة المشينة التى صبغت الحياة الحاضرة فى العالم اليوم بصيغة القلق والاضطراب فغابت معانى رقة الزوجة وأفل معنى كدح الزوج وضحل نبع حنان الأم وتقلص برهان وداعة الأبناء وغاب عطف الأخت وانزوى شبح رعاية الأخ .

سيدتى ، آنستى ان طلب المساواة فى صورته هذه يحمل فى طياته أولاً وبالذات اعترافاً منك بالنقص وحاشا امرأة مسلمة تؤمن بقيمها أن تشك يوماً أو تشكك فى قيمتها الإنسانية بتطلعها للوصول إلى قيمة إنسان مثلها يساويها نوعاً وما ذاك إلّا مراء وخيالا وظلا لامتداد ماضٍ بغيض قضى عليه الإسلام بتشريعه العادل النزيه .

البيت المسلم بين صفاء الروح ومسئولية العمل

من منن الله عز وجل على المؤمنين وأفضاله عليهم أن جعل لهم شهر رمضان المعظم ، شهر العبادة والمراجعة والذكرى والتذكر ، شهر الصيام والقيام وتلاوة القرآن لشحن الفكر وتصفية الروح وتطهير النفس .

صوامع تشع بالأنوار ومآذن تعبق بذكر الله ومساجد تعج بالمصلين وأدعية ترتفع وأكف تضرع وجباه تخشع وآيات بينات تنبض بهداية الله تدعو لصلاح النفس ورعاية الأهل والولد تعالج أحكامها قضايا الإنسان فى تنوعها وترسم للروح طريق سعادتها وأمنها وتعلم المسلم صواب تعامله مع المادة وكيفيات تصرفه فيها .

فى شهر رمضان المعظم تعيش العائلة المسلمة فى كل هذه المعانى السامية فالمفروض بعدئذ أن تعم الاستقامة الفردية ويصلح حال البيت ويسعى المجتمع نحو الفضائل فتتحقق لأمة الإسلام الخيرية على سائر الأمم ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ .

لقد تكاثرت فى عالمنا الحاضر النظم العقلانية والنظريات وتعددت المخططات وتنوعت مقولات الاصلاح والتقدم والازدهار فلنترك ـ ولو لوقت قصير ـ ما تعج به وسائل الإعلام من هالات التباهى وعرض قوائم المخططات وصيحات الاعتزاز وادعاءات

الازدهار لنطرح كل ذلك ونتفحص واقع الأمم ولنتساءل عن النفس الإنسانية المطمئنة عن مظاهر وحقائق السعادة فى بيوت هذه المجتمعات التى تدعى التقدم والحضارة والازدهار .

غرب غارق فى ماديته متخم بآلاته تزخر أسواقه بنتائج علمه وتفوق تقنياته وتقدم تكنولوجيته ، ولكن بيوتاته سقيمة باهتة تشكو فراغ الروح وكآبة النفس وتشتت الأهل وقطيعة الرحم .

شرق يمتلك الحب وطيبة النفس ، يمتلك الإيمان وهو أقدس طاقة روحية وفكرية وأنفع منهج علمى وأقوم مسلك إنسانى ، إنه يتباهى بما يمتلك ويعلن صلاح دينه لكل زمان ومكان ، ولكنه فى نفس الوقت ـ يتيه فى غفلة عما عنده ويرنو بعين الاكبار لمسالك الغرب ونظمه الاجتماعية البراقة فهو مذبذب بين الإيمان بما عنده والاعجاب بما عند الغربيين ، ذبذبة جعلت بيوتاته تشتكى القلق والاضطراب وفرضت على أفراده التردد بين مسايرة الغرب وتقليده أو الانزواء والقعود السلبية .

قيل : « يوجد اسلام ويوجد مسلمون » .

لقد اعتمد الإسلام الفكر والايمان وأمر باقتفاء أثر المعرفة ووضع منهج السلوك وألح فى إفهام الناس وجوب ربط العقيدة بالعمل .

أما المسلمون فقد اعتنق الكثير منهم الإسلام وارتبطوا بعقيدته وفكره وغفلوا عن السلوك والشعائر وقليل من المسلين من تمسكوا بالسلوك والشعائر دون أن يكون للإيمان كبير أثر فى نفوسهم وقليل من المسلمين من يكونون الفئة الثالثة التى يكون إيمانها الدافع الوحيد

للعمل ويكون عملها هو الغاية الوحيدة لإيمانها وبذلك تمسكت بالإيمان والعمل .

إن معنى ارتباط العقيدة بالعمل هو من أوكد ما يجب أن يقتنع بجدواه البيت المسلم . فلنفحص أفراد بيوتات المسلمين الأولين لننظر حالهم : هل عقلوا شيئا دون أن يحولوه إلى سلوك ؟ هل فصلوا بين عقيدتهم وعملهم فى ما أخذوا وتركوا ؟ . لقد تقيدوا تقيدا تماما بالمفهوم الصحيح للأحكام الشرعية بالحلال والحرام وما بينهما فتقيدت نظراتهم ومسامعهم وأقوالهم وكل أعمالهم ومعاملاتهم بالأحكام الخمسة الحلال والمندوب والمباح والمكروه والحرام فخضعت لها كل تصرفاتهم فى عائلاتهم مع الزوجة والبنين والآباء والأمهات وكذلك كل اعتبارات الجوار والتعامل . وعلى هذا المنوال أسسوا بيوتهم وسلكوا طريقة محددة فى التصرف والتربية .

ومن هذا يتضح لنا أن الفكر الإسلامى والدعوة الدينية الربانية لا تعرف العلم لمجرد العلم ولا المعرفة ولا النظرية لمجرد التخطيط الدعائى ولا الإيمان لمجرد القول وإنما يكون العلم للعمل والمعرفة للتفهم والتخطيط للتنفيذ والإيمان للتقوى . يعلم المسلم الحلال ليأتيه ويعرف الحرام ليتقيه ويوازن بين المصالح فى المستحبات وما هو مكروه أو مباح .

إن التقيد والضبط روح هذا الذين والالتزام ماهية الدعوة الإسلامية ، وربط النية بالعمل أمر أساسى فى كل ما نأتى ونذر .

إن هذا الدين دين العقيدة والسلوك ، دين التماسك بين ما فى

الإنسان من روحية وبين ما يحتاج إله من مادية ، دين العزم والتنفيذ . فلابد أن يحول كل مسلم معرفته إلى عمل يأتيه . وعلمه إلى تطبيق ينفذه ، ودرايته إلى واقع يسلكه حتى تتحقق مبادئ ذلك الدين الذى يزاوج بين الروح والمادة ويكون ميزان عدل يزن الأعمال ويقيد التعامل فيكون بيت المسلم ميدان التجربة بسلوكه وقاعدة الإنشاء والتعمير .

ليكن البيت المسلم فى هذا الشهر الكريم ـ حيز مراجعة المبادئ التى انبنى عليها ديننا ، المبادئ التى أسست دعائم العقيدة الصحيحة وشرعت أسس أحكام التعامل فى مجاليه الأدبى والمادى ، الشخصى والجماعى ، ففى الشهادة حكمة الالتزام والضبط ، وفى إقامة الصلاة حكمة التعود والسلوك ، وفى صيام رمضان موعظة وتأدب ، وفى إيتاء الزكاة خلوص الائتمان والأمن الاقتصادى ، وفى أداء الحج حكمة التعارف وجهاد النفس .

والبيت المسلم ـ فى هذا الشهر المبارك ـ حين يكثر من تلاوة القرآن الكريم يراجع النفس ويكون بذلك مقتديا بسيد الكائنات ، حيث راجعه جبريل ـ عليه السلام القرآن الكريم فى مثل هذا الشهر .

فالمفروض أن تكون مراجعة البيت المسلم للمبادئ توعية شاملة مفيدة وتجديدا للثقة بالنفس حتى يرتبط كل فرد منا بين ما يعلم وما يعمل ، وحتى يحكم الربط بين خيوط الإيمان والعقيدة وبين قضايا السلوك فى كل مجالات الحياة ، فى الصوم والإفطار . فى العبادة والمعاملة . فى التملك والتصرفات . فى الأخذ والعطاء فى

النوم والصحوة .

إن سر النجاح فى الحياة عند جل الأمم هو حسن التخطيط وضمان تطبيقه والمسلم الحق هو ذلك الذى يعى ما خططه له رب العزة فى كل مجالات الحياة ويداوم على تطبيق الأحكام الشرعية فى سره وعلنه ، فى بيته ومجتمعه تربية وسلوكا .

إن من أهم قضايا الساعة التى تشغل بال الأمم قاطبة هى التربية والاقتصاد لأن التربية تنشئة وتعليم وأخلاق وسلوك ، والاقتصاد تملك وتصرف ، فبالأولى يستقيم السلوك وبالثانية يكون الازدهار والنماء .

لقد استوعبت نظريات الإسلام الأمرين استيعابا تاما وأصلت قواعدهما تأصيلا محكما حتى تتشابك المصالح الأدبية والمادية وتتكامل مطالب الروح والجسد فى وئام يضمن للبشر سعادة النفس وأمنها وللمادة عندهم عطاءها ونماءها .

إن التقدم البشرى ليس أمرا سحريا ولا هالة من تقديس أو تزويقا لخيال أو براعة فى حشد المخططات ولا منافسة فى وضع النظريات فحسب إنما هو فى حقيقة الأمر ربط مدركات العلوم بالسلوك والعمل والعقيدة الإسلامية وما عناه الإسلام فى مفهومه الواسع هو تقييد الجوارح بالنية والإيمان الحق بالسلوك الصالح . فالتفهم والعلم والإحسان فى العمل والأداء والوسطية فى التصرف الاقتصادى أساس صلاح البيت وقوام رفاه المجتمع .

فالبيت المسلم هو ذلك البيت الذى راجع نفسه وأصلح حاله ، وذكر وتذكّر ، وانتبه وتقيد ، وأدار حركة الاقتصاد بفنيات

التوصيات الربانية وحسب التوجيهات النبوية حرفا بحرف اهتداء بقوله ﷺ « **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى** » وعملاً بتحميله المسؤولية إذ كل فرد راع ومسؤول عما يرعاه ومن يرعاه .

والمرأة فى هذا البيت عمدة لها القسط الأوفى فى مجالى التربية والاقتصاد فهى مربية الجيل ومنشئة الفكر وداعية مسموعة الكلمة فى الذكرى والتذكر ، وهى المديرة لحركة الاقتصاد إذ هى التى بيدها تعديل موازين التصرف ، تضبط القائمات وتحدد الحاجات وتعرف الأوكد والأكيد واللازم والمستغنى عنه وفقا لتوجيهات سيد الكائنات . جاء فى صحيح البخارى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : « **قال رسول الله ﷺ : إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما كسب وللخازن مثل ذلك لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئا** » .

فبمراعاة الأجر تدخر المرأة من اللحم لحمة ومن الفحم فحمة ومن البر حبة وتدعه لوقت الحاجة ـ حسب توصيات الجدّات المدبرات ـ وبذلك لا تكون من المسرفات ولا من المقترات .

فالبيت المسلم هو ذلك البيت الذى تديره السيدة المتفهمة لتعاليم رب العزة ووفق توجيهات النبى الأكرم يكون فيه التعاون قائما بين كل الأفراد باليقظة الدائمة والالتزام بما يحل ويحرم لا إفراط ولا تفريط يراعى الجميع حق الدين وواجب المال وصلاح الأهل فى النفس والولد ـ فالميزة لهذا البيت هى الإيمان الصادق والعمل الدؤوب وفق العلم والمعرفة ، والطابع الواضح له قناعة واعتدال .

فبالتذكر تنضج الأفكار ، وبالإيمان تقوى النفوس ، وبالتقوى يستقيم السلوك فيعمر البيت وتتعمق الثقة بالنفس فيكون بيتا مسلما آمنا بإيمانه بالله ، سليما باستقامة سلوكه ، مزدهرا بحسن تصرفه ، وسطا بقوام عمله متقيدا بأمر الله ونهيه فى كل تصرفاته وحركاته .

قوامة التصرف أساس من أسس الحضارة

قال تعالى : **﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾**[1]

وقال جل وعلا : **﴿يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون﴾**[2]

وقال جلت قدرته : **﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا﴾**[3]

إن قوامة التصرف وحسن إدارة المال يعتبر قضية الساعة فى الكثير من المجتمعات الإسلامية . وهذه القوامة تعنى أن يكون تصرفنا رشيدا بين أيدينا وأن يكون استهلاكنا رشيدا لما يسره الله لنا من خيرات معاشنا .

ولعله يمكننا أن نتساءل عن الطرق الموصلة إلى ترشيد الاستهلاك :

ـ فهل يكون بحسن قوامة التصرف والاعتدال فى الإنفاق ؟

ـ أم هو بتعديل فى المطالب وضبط مقاديرها ؟

ـ أم هو موازنة بين الدخل وما تحت اليد وبين اليد وبين ما ينفق

---

(١) سورة التوبة/١٠٥ .　　(٢) سورة الانعام/١٣٥ .

(٣) سورة الكهف/٤٦ .

ويصرف ؟

ـ أم هو حسن الاستغلال للمال والعمل على إدراك الأهم قبل المهم ؟

ان ترشيد الاستهلاك هو كل هذه المعانى السامية والتربية القويمة الراشدة التى تدل على المستوى الحقيقى للفرد وللمجوعة فى مجال الحضارة وميدان التقدم الصحيح .

وقد يتساءل البعض عن ترشيد الاستهلاك فيقول :

ـ هل هو ترغيب فى التقتير؟

ـ أم هو ترهيب من الإسراف ؟

فإنه ما من شك فى أن التقتير هو البخل على النفس والأهل وترك ما يعتبر أساسيا فى حياة الإنسان من مأكله وملبسه وتربيته وتعليمه والتقصير نحو كل الواجبات فهو إذن ليس ترشيدا للاستهلاك .

أما الإسراف فمعناه تبذير وهمجية فى التصرف وعدم تقدير للأمور وإخلال بضبط الضروريات والحاجيات وصرف المال الكثير لأمر لا فائدة منه أو لحصول فائدة قليلة لا تساوى المال المصروف وهو أيضا ليس ترشيدا للاستهلاك وإنما هو دليل على عدم وعى وفقدان لمفاهيم الحضارة الحقيقية .

وإننا نجد فى ديننا الحنيف خير دليل وخير موجه وخير تشريع لذلك علينا أن نعود دائما إلى توجيهاته لتدلنا إلى سواء السبيل :

إننا أمة وسط نأخذ من كل حلال بطرف نستوفى الحق كاملا من الضروريات ونقدر الحاجيات وننعم بما أمكننا من كماليات أحلها

الله لنا .

والإسلام يحفظ علينا كل مقومات إنسانيتنا .

يقول علماء التشريع الإسلامى : مقصود الشرع من الخلق : أن يحفظ عليهم دينهم وأنفسهم وعقولهم ومالهم . وكل ما يضمن هذه الأحوال فهو مصلحة قائمة وضرورة واجبة .

إن أضمن ما يجب أن نرجع إليه فى معرفة طريقنا هو كلام الله جل شأنه وسنة نبيه ﷺ فهما نورنا الذى نهتدى به والأساس الذى نبنى عليه حياتنا :

فالحفاظ على مقومات الإنسان ومصالحه ورغباته الطبيعية والمشروعة من واجبات المؤمن فالله يرفع عنه الحرج ويدله على الطرق التى تدفع عنه الضيق فى العيش .

ـ قال تعالى : ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾[1] .

ـ وقال : ﴿**وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾[2] .

وبهجة النفس وزينة الحياة الدنيا كماليات أحلها الله لنا .

ـ قال تعالى : ﴿**قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة**﴾[3] .

فترشيد الاستهلاك أو قل حسن قوامة الإنفاق دعوة لحسن

---

(١) سورة البقرة/١٨٥ . (٢) سورة البقرة/١٩٥ .
(٣) سورة الأعراف/٣٢ .

التصرف فى ما يسره الله لنا من الرزق وإرشاد لسلوك الطرق الصحيحة فى استعمال خيرات الدنيا التى بين أيدينا . فقد شمل التشريع الإسلامى بأحكامه وتشريعاته هذا الموضوع وبين لنا العلاقة بين التكسب وما يجتمع تحت أيدينا من المال وبين أساليب الإنفاق وأوجه التصرف فيه .

إن ديننا الإسلامى يعتبر أن المال مال الله ، وأن هذا المال سخر لمنفعة البشر أفرادا وجماعات فهو عارية ـ سلفة ـ عندهم ينتفعون به ويتعاملون به فى حدود تعاليم الشرع وتقنينات أحكامه .

ـ قال تعالى : ﴿**آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه**﴾ (١)

وقد حرم الله كنز الأموال ومنعها من التصرف بالتجارة والأعمال والزكاة والصدقات حتى لا تصاب أمة الإسلام بالأزمات الخطيرة ولا يصبح المال المكنوز ضررا للمجتمع المسلم قال تعالى : ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم**﴾ (٢) .

وكما أن طرق تكسب المال لها أوجه محددة من طرف الشرع فإن أوجه صرفه كذلك حددها الله لنا ، ذلك أن هذا المال الذى استخلفنا الله فيه ـ كما تنص الآية ـ يصبح مصدر التزام لنا بأن نحسن التصرف فيه فنقوم بواسطته بالتكاليف التى فرضها الله على حائز المال لينهض بأعبائه وواجباته نحو نفسه ونحو عائلته ونحو أمته ،

---

(١) سورة البقرة/١٨٥ .

(٢) سورة البقرة/١٩٥ .

سائرا فى ذلك على أوامر المستخلف جل شأنه منتهيا عن نواهبه .

فالمال وسيلة لكسب الخير والبر قال تعالى : ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾[1] ...

والنظام المالى فى الإسلام نظام حياة ومنهج سلوك ، فهو ليس مجموعة من الوصايا التى يمكن أن يستفاد منها فى مجتمع دون آخر أو يكتفى ببعضها دون البعض وإنما هو نظام متكامل يفرض على المسلمين الأخذ به عموما ، والأصول الجامعة لهذا النظام هى : بيان أهمية المال فى حياة الإنسان والمجتمع ـ بيان طرق التكسب الحلال ـ بيان الغاية من المكتسب ـ بيان مسؤولية الإنسان فى المال ـ بيان طرق التصرف وكيفياته من ضروريات أكيدة ورغبات مشروعة وكماليات ممكنة وزوائد لا ضرورة لها ولا متعة فيها وإنما هى باب للصرف يكون بسبب الرياء والتظاهر أو الانفاق الهمجى الذى لا فائدة منه ولا منفعة .

لم يتفق الناس على أمر مثل اتفاقهم على أهمية المال وحرصهم على جمعه ـ لذا وصف الله الناس بقوله : ﴿**ويحبون المال حبا جما**﴾[2] ولا عجب أن يكون إشباع نهمهم يتوقف إلى حد كبير على ما يجمعون من مال وما ينتفعون به منه .

لقد ورد لفظ المال وما تصرف منه فى القرآن الكريم فى ستة وثمانين آية بسطت القول وفصلت الأحكام وبينت طرق التكسب المشروعة وأوجه الانفاق ومسارات التصرف وذكرت الغايات

---

(١) سورة الأعراف/٣٢ .

(٢) سورة الحديد/٧ .

والأهداف من المبادلات المادية ووضحت أن المال أمل بشرى وزينة الحياة الدنيا إذا ما أحسن مالكه التصرف فيه كان عليه نعمة وبركة وإن أساء التصرف وعلا وتجبر وأسرف أو بخل كان عليه نقمة ووبالا .

وفى القرآن الكريم أيضا ورد لفظ الإنفاق وما تصرف منه فى اثنتين وسبعين آية شملت أوامر ونواهٍ متعلقة بأوجه التصرف ذاكرة كيفيات المبادلات المادية والأدبية . ومن الآيات الجامعة فى الموضوع قوله تعالى : **﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾**[1] صدق قوله الحق ، هذه أوصاف جامعة للمؤمنين المستغفرين المنفقين النابهين المتعلمين العاملين بهدى الإيمان فتستنير دروب حياتهم ويكونون من القانتين لله عز وجل .

وقد تعرض القرآن الكريم لموضوع التبذير فى آيتين كريمتين واردتين فى قوله تعالى : **﴿ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا . وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا . إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين . وكان الشيطان لربه كفورا﴾**[2] .

فقد نهانا الله تعالى عن التبذير وحرمه علينا وجعل المبذرين اخوانا للشياطين ومماثلين لهم ثم بين لنا أن الشيطان كافر بنعمة ربه فيكون المبذر كذلك كافرا بربه وبنعمه عليه .

---

(١) سورة التوبة/٢٤ .
(٢) سورة آل عمران/٩٢ .

أما موضوع الإسراف وما تصرف منه فقد ورد فى القرآن الكريم فى ثلاث وعشرين آية تدعو جميعها المؤمنين الصالحين إلى تحاشى الإسراف وضبط النفس وحسن الفهم والتدبر حتى لا يكونوا من المسرفين الذين يحرمون من حب الله لهم لقوله تعالى ﴿**ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾[1] وقوله تعالى ﴿**وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾[2] وقوله تعالى ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكانوا بين ذلك قواما**﴾[3]

فالإسراف كفر بنعمة الله وبطر وصنيع من حبائل الشيطان وكثيرا ما ورد الإسراف وصفا لفرعون الذى علا فى الأرض وكان من المسرفين.

إن التأدب والتفقه بشرع الله واجب على كل مسلم ومسلمة حتى يعرف الإنسان ما أحل الله له وما حرمه عليه وقد دلنا الله تعالى إلى المنهج الصواب فى الكسب وفى التصرف ـ وإن حسن التصرف وقوامة الإنفاق علم ودراية تناوله الشرع بالتحليل والبيان حتى يرتفع المسلم عن عيش الهمجية والجهل وفوضى تذبذب الرأى واتباع الشهوات الزائدة التى ليس لها حدود. وبذلك يصل المسلم إلى معرفة معنى السلوك القويم ويسير عليه فى جمعه للرزق وصرفه وتوزيعه توزيعا محكما فلا يرتمى وراء منافذ التكسب إلا إذا كانت من الطرائق الحلال ولا يتهور فى تصرفه وإنفاقه إلا بعد مراعاة المصلحة وترك التبذير والتقتير. فقاعدة التعامل هى : لا إفراط

---

(١) سورة الفجر/٢٠ .　　(٢) سورة آل عمران ١٦ ـ ١٧ .

(٣) سورة الاسراء ٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧ .

ولا تفريط ولا غبن ولا قهر ولا تقتير ولا إسراف .

لقد كان رسول الله ﷺ أكثر الناس تنظيما لأموره وشؤونه كلها وكان تصرفه المالى على أحسن وجوه النظام والضبط إذ كان ﷺ يسجل كل ما يرد إليه من إيرادات ويجرى لها تقديرا قبل ورودها وبعده كما كان يحتفظ بسجلات لكثير من أنواع النفقات ، أما النفقات غير المتوقعة فيدخر لها جزءا من الإيرادات العامة لمواجهتها عند حدوثها وهذا جوهر التخطيط المالى فى العصر الحديث ، كما أنه كان يكلف بعض الصحابة بتقدير الإيرادات من خرص النخل وأموال الصدقات وزكاة رمضان وسهام خيبر وخمس الغنائم حتى أن الصحابى معيقب بن أبى فاطمة كان هو المكلف بتسجيل الغنائم وكتابتها .

وقد نقلت المصادر الموثوق فيها كيفية هذا التدوين وكيفية تقسيم النفقات حيث كان ﷺ يقسمها إلى قسمين رئيسيين (النفقات الراتبة) وهى العادية (والنفقات الحادثة) وهى غير العادية الطارئة .

فترشيد الاستهلاك وحسن قوامة التصرف تربية إسلامية رشيدة ومنهج قرآنى قويم أنار العقل وهذب النفس والسلوك للمسلمين منذ ما يزيد عن أربعة عشر قرنا منذ أن استجاب المؤمن لدعوة الحق دعوة صلاح الدين والدنيا وقيامهما على أساس من العقيدة الصحيحة والعمل الصالح والإحسان فى الأمور كلها .

فإن الله تعالى أمرنا أن نكون قوامين بالقسط محسنين فى كل عمل نأتيه : فيما نفكر فيه ونعتقده ، فيما ننطق به ونقوله ، فيما نراه

ونسمعه ، فيما نفعله بأيدينا ونذره ، فيما نأخذه ونعطيه ، فيما نستفيد منه ونستهلكه .

إن ترشيد الاستهلاك قضية حضارية ودليل على درجة نضج فى الفكر وسلامة فى العمل ، وهى ليست أبدا ترغيب فى التقتير أو دعوة للشح والبخل وإنما هى منهجية تربوية وسلوكية تعلمنا الاستقامة والتوازن وتعلمنا ضبط المقدرات وتحكيم العقل وتسليط الفكر فى كل ما نأتى ونذر .

إن الاكتفاء بقدر الحاجة من شؤون حياتنا مبدأ إسلاميا نطبقه فى عبادتنا ومعاملاتنا نحن المسلمين . ونعتمده فى كل أمور معاشنا وخاصة فى البيت المسلم الذى تكون سيدته أول مسؤولة على ترشيد الاستهلاك فيه .

إن ترشيد الاستهلاك من صميم اهتمامات الأمم فى العصر الحاضر ، فهو عند الغربيين علم واقتصاد ، وهو عندنا نحن المسلمين : دين وعلم واقتصاد دعانا إليه ربنا فى آياته البينات وعلمنا إياه رسولنا فى أعماله وأقواله وسار عليه سلفنا الصالح وألف فيه علماؤنا الأعلام فنحن فيه قدوة للأمم لا عكس .

فإذا كانت صاحبات البيوت فى الدول الغربية تسدن الأسرة بفكرة علم الاقتصاد فنحن السيدات المسلمات ربات البيوت وداعيات أهلها مطالبات بتسيير موازين أسرنا على منهاج التربية الإسلامية دينا وعملا حتى نكتسب حسنة الدنيا وحسنة الآخرة . وعلى منهاج علم الاقتصاد وحسن التصرف وقوامته . فالواجب يحتم

علينا أن نبعث حركية جديدة فى بيوتنا وتصرفاتنا حتى ننظم ذلك الكسب الحلال ونحسن التصرف فيه على النمط الذى أمرنا به الله عز وجل وعلى المنهج الذى سار عليه الرسول الأعظم ﷺ ـ فهو رائدنا وهو أسوتنا وهو معلمنا العظيم ، دون إهمال لما وصلت إليه المعرفة الإنسانية من قوانين علمية نزيهة لا تتعارض مع الدين والخلق والحق .

والله وحده الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

لوحة من الماضى وأخرى من الحاضر

الهجـــرة وتكوين الدولة الإسلامية

استقامة الإنسان تكمن فى مدى وفائه للقيم والمثل والحضارة الإسلامية ازدهرت عندما تعانق صدق الإيمان فى النفوس بصالح الأعمال بالجوارح ، فالوحى السماوى فرض على المؤمنين النية والعمل والعزم والإنجاز وهو لعمرى تمام التقيم والمثالية .

لقد تشابه وضع الإنسانية الحالى بوضعها فى الجاهلية الجهلاء . لنعرض لوحتين احداهما تصور حال الإنسانية وضلالتها وكفرها ولوحة فيها حالات ونوعيات ومتاهات وضلالات عالم اليوم .

هاجر ﷺ إلى المدينة المنورة وهجر مكة مسقط رأسه ومهبط الوحى فرارا بدينه من الكفار والنفاق والإلحاد . فالغاية من الهجرة والدافع الأساسى لها هو « إعلاء كلمة السماء واتباع الحق ونشر الفضيلة » قال عليه الصلاة والسلام : « **ياعم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه** » ، ثم تراه استعبر فبكى فلما ولى عليه الصلاة والسلام قال له حين رأى ما بلغ الأمر برسول الله : أقبل يا ابن أخى فأقبل عليه قال : امض على أمرك وافعل ما أحببت فوالله لا نسلمك بشىء أبداً .

دقت الهجرة المحمدية باب التاريخ الإسلامى وفتحته على مصراعيه فتدفقت أفواج المسلمين تنبض نفوسهم بالإيمان وتلبى جوارحهم الأوامر وتنتهى عن النواهى فأسمعت العالم بصفة عملية واقعية دعوة ذلك الدين الخاتم وتكونت نماذج فذة من البشر تساموا أرواحا وتفوقوا حضارة وتشبعوا علما حيث أمكن بذلك الهدى النير استيعاب المعارف الإنسانية والفلسفات العقلية والوجدانية فاستفادوا استفادة منقطعة النظير فى مجال الحياة الجانب النظرى منها والوجهة التطبيقية العملية ، فكان صلحا موفقا بين المادة والروح .

وباستعراضنا لغاية الهجرة ومعناها وإجمال القول فيما تعرضت له آيات القرآن الكريم من أهداف لاحظنا التحول الحاصل فى ذلك المجتمع . فبعد أن كان أولئك غلاظا شدادا يقيمون على المنكر ويعتمدون تفرقة ما أنزل الله بها من سلطان ، تفرقة تضع الحجازات بين الذكر والأنثى وقالوا « ليس الذكر كالأنثى » وانحدر بهم التلكؤ والاعتقاد المزرى إلى ارتكاب شنائع بشرية فوأدوا البنات وعفقوا السيدات وجعلوهن متاعا يورث ويتصرف فى شؤونهن دونما مشيئة أو إرادة منهن . فرقوا بين الأبيض والأسود بين العربى والأعجمى أقاموا الحواجز بين الفقراء والأغنياء بين القوى العضلات وضعيفها أرهقوا هؤلاء باستغلالهم لفائدة أولئك .

كل هذه المظاهر الاجتماعية المؤلمة قضى عليها الإسلام فغير المؤمنون ما بأنفسهم بإيمانهم الحق ونبذهم الشرك فأصبحوا بنعمة

الله إخوانا . صار أولئك الجاهليون باعتناقهم هذه الدعوة القيمة يقدرون القيم فنبذوا الوأد والتفرقة واستصغروا هزال هذه الأفكار فأقاموا المساواة فى الحقوق والواجبات وارتقبوا حق الله فى سرهم وعلنهم وتعايشوا مع معانى الحق والعدل فى واقعهم الملموس وعيشهم الأسرى والاجتماعى .

سمت علاقات الفرد منهم فى أسرته وبلغت مستوى الرقة والرفاه . ورقت معاملاتهم الأدبية والمادية فى مجتمعهم فى الدولة الواحدة وفى الدول المختلفة المسلمة والعاملة بكلمة التوحيد كأمة واحدة والمختلفة معها دينا على مبدأ ﴿**لكم دينكم ولى دينى**﴾ فحفظات الكرامة البشرية والحريات الشخصية فى عز الإسلام وصدق الدعوة وعدالة التشريع .

جاء فى الحديث الشريف « **الإيمان بضع وسبعون شعبة** » ـ رواه البخارى ـ وقال سبحانه وتعالى : ﴿**ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون**﴾ [(١)]

هذه لوحة لونت الحياة الجاهلية القاتمة التى أضلت حياة الإنسان وأدت به إلى درك السوائم العجم وأشد منها ضررا وظلما فأدركهم لطف الله وهداهم للتنزيل السماوى والتوجيه النبوى إلى سواء السبيل وجعل منهم الأمة خير الأمم .

---

(١) إبراهيم/٢٤ ، ٢٥ .

أما اللوحة الثانية التى يمثلها حالنا وواقعنا وما أصبح عليه الإنسان من تيه وتشرد فكر بتشعب الأمور فى افتتانه بإنجازات الغرب وحضارة أوربا فشدت بصره وأصبح كثرة غالبة من المسلمين يتطلعون لرفع مستواهم المادى والمعاشى على نمط غربى يقتبسون التقنيات والمعانى والفكر أى ينشدون بناء مجتمع عصرى مماثل .

فكيف يمكن بناء ذلك المجتمع المنشود ؟

هناك نظريات تنموية واتجاه مادى غرضه دفع الإنسان نحو ازدهار الاقتصاد ومن أبرز هذه النظريات ، النظرية الماركسية التى ترى أن أساس توجيه الأنشطة الاجتماعية تنمية الاقتصاد والناس ضمن هذه المادية تتصارع صراعا تحركه ضمان المصالح المتضاربة .

وهنا وهناك فى الشرق فى أحضان الرأسمالية أو ضغط الاشتراكية تقبع فى نفس الإنسان ضلالة وشرك وتفرقة جاهلية تشكلت بأشكال ثلاثة :

تفرقة بين الذكر والأنثى وتفرقة بين الأبيض والأسود وتفرقة بين الغنى والفقير .

وهكذا تكون ويلات العصر الجاهلى هى نفسها ويلات هذا العصر والإنسان نفسه مصدر التعذيب ومحله وفى كلا الحالين ضاع الصواب وفقد الإنسان التوازن النفسى والواقعى الذى يقيه العثار .

فالمال والجاه وعبادتهما دون الالتفات إلى مبادئ الكسب المشروع هما لونان من ألوان الشرك إذ فى سبيلهما يضحى بكرامة البشر بتجاوز الأنانية ومحسوبية الأنانية الشهوانية المجحفة بحق الغير وبتحدى الحدود الاجتماعية والإخلال بماهية النظام العادل الذى

يخضع للقاعدة الذهبية الإسلامية « لا ضرر ولا ضرار » والمعرضة عن نصح من قال « إن لنفسك عليك حقا ولغيرك عليك حقا » أو مفهوم « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

والتاريخ الإسلامى حافل باستجابات مفيدة لتفحص قضايا التجديد وكيفيات التحول الاجتماعى فبعضها إصلاحى وبعضها ثورى وبعضها إلهامى وقد لعبت كلها الدور الإيجابى فى تكوين الحضارة الإسلامية والبرنامج التشريعى حافل بمواقف العدل والاستقامة وما أفلت أضواء تلك الحضارة إلا عندما حل التقليد وانتصب الجمود وتفاقم الجدل البيزنطى العقيم وأصبح الفكر الإسلامى المعاصر شاردا وراء تساؤلات مصطنعة قد تزيد فى تشرد المسلمين وضياعهم عن حقيقة دينهم .

والواجب يفرض علينا تأمل معنى الاستقامة التى يفرضها الدين الحنيف والتى تحمل فى طياتها التصالح القيم بين المادة والروح حتى نجمع بين مصالح ديننا ودنيانا وحتى تنمو روح الإنسان ويلائم واقعة بالتقوى فيشتد عنده العزم بطلب المعرفة المفيدة الهادفة التى أوضحها القرآن الكريم فى مساراتها الثلاثة المعرفة العقلية الفاحصة والتجريبية التطبيقية والروحية الإيمانية . فالأولى تتمثل فى الدعوة الصريحة الواضحة المقتضية لإعمال العقل والتدبر والاستنتاج والتفكير . يقول الإمام الشاطبى « الأدلة الشرعية لا تتنافى لأن العقل هو مناط التكليف عند ارتفاعه » والثانية تتمثل فى قوله تعالى ﴿**قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق**﴾ . العنكبوت/٢٠

وفى السيرة النبوية أن رسول الله ﷺ أمر قوما ألا يؤبروا النخل فامتنعوا ففسد ، فسألهم عن ذلك فقالوا « لقد نهيتنا فانتهينا » فقال لهم « **عودوا فأبروا أنتم أعلم بشؤون دنياكم** » وطريق المعرفة الثالث يتمثل فى الايمان والتقوى وهو ما يفتح فى الإنسان أبواب الهداية والتوفيق قال تعالى ﴿**اتقوا ويعلمكم الله**﴾ . وهذه التقوى هى التى تصلح شأن الإنسان فى أى زمن من الأزمان لأنها تنتشله من عدم الثقة وتمكنه من مراعاة حق الغير وتشرع له جوانب التطبيق فى الناحيتين الروحية والعملية . فيؤمن ويعمل بحب ويتقى بوعى .

فلابد من هجر موبقات الجاهلية والعودة لما فرضته هجرة رسول الله ﷺ من استقامة فردية وأسرية واجتماعية .

مستوردات خطيرة

لقد استوردنا الكثير والكثير جدا من المجتمعات الغربية « مستورداتنا » الخطيرة فكرة الاستقلال عن العائلة والابتعاد عن المحيط الأسرى وهى ظاهرة نشأت فى بعض مجتمعاتنا الإسلامية وعند بعض شبابنا عند بلوغهم سن الثامنة عشرة ، هى فكرة مخربة تتنافى مع ما يأمرنا به ديننا الحنيف وما تقتضيه أخلاقياتنا وما تستوجبه متطلبات حياة مستقيمة مسلمة .

إن من يستقل بالتصرف فى مثل هذه السن وينفرد بالسكن ويبتعد عن رقابة الوالدين ورعاية المحيط الأسرى فيغرق فى حريته الهمجية بكل ما له من قدرات جسيمة وينفلت عن كل قيد فى مجتمع إباحى لا يخضع لحدود شرعية تتوفر فيه للشباب كل وسائل إشباع الحاجات الجسمية مع اليسر والسهولة وتعرض كل المغريات المورطة والمشجعة على التجارب العاطفية مما يوقع فى الانحراف النفسى والخلق ولا ينجو منه إلا من رحم الله .

ومن مخلفات هذه الاستقلالية انبتات الإنسان من وسطه ومحيطه وانهماكه فى حياة سائبة تخلو من كل رقابة أمينة وتفقد كل أمل بعيد أو هدف مركز ، وتجعله عبدا لكل ما يكتسبه فى يومه وليلته من رغبات وماديات حتى ينصرف عن التفكير فى الزواج ،

ولماذا يفكر فيه ؟ ألِسَعْى منه لتحمل المسؤولية ؟ أم لرغبة فى الإنجاب ؟ أم لوازع دينى يعصمه ؟ أم لحاجة يفتقدها ولم تتوفر له ؟ ولكل هذه العوامل تحرمه مما تعود فى استقلاليته وحريته وتسيبه .

لقد تجول الكثير من شبابنا وشاباتنا فى عواصم البلدان الغربية المصدرة لهذا النمط من « الحضارة » وقرأوا عنها الكثير وسمعوا وشاهدوا العروض الطويلة المغرية فتأثروا تأثرا بالغا بتلك الحياة وارتبطت فى أذهانهم علاقة وطيدة بين هذه الأخلاقيات المتسيبة وبين تلك المبانى الشاهقة والواجهات البراقة والأضواء الخاطفة وينابيع المياه الراقصة بانتظام والحدائق المغرية والخدمات الاجتماعية والآلات الغريبة النافعة ورأوا الرجال والنساء والأطفال يملأون الشوارع حركة فى بهاء هندام ورشاقة قوام واستقامة نظام ونشاط حركة مع سلامة فى التعامل وأدب وخضوع للقوانين .

تتكاثر المتاحف والمعارض والمكتبات العامة ودور السينما والمسارح والملاهى وغير ذلك مما يحمل الخير أو يدعو إلى الفساد ، كلها مفتوحة الأبواب يدخلها من قدر على دفع ثمن الدخول إليها .

إن ارتباط هذه الحرية المتسيبة بتلك المظاهر الحضارية وتمازجها شكليا عند المجتمعات الغربية جعلت شبابنا ـ يعتقد أنهما أمران متلازمان متكاملان لا انفصام لأحدهما عن الآخر . ومن هذه الزاوية أطل علينا شبح هذا النمط من « الاستيراد الخطير » وأصبح الكثير فى مجتمعاتنا يعتقد ذلك وصاروا فى ذبذبة رأى يتساءلون : هل أن الحرية والاستقلال فى الرأى والتصرف المطلق طريق للوصول إلى ما يشبه تلك الحضارة وبلوغ تلك الإمكانات ؟

لقد نسوا أو تناسوا أشياء كثيرة .

أولا : إن منطلقات تلك الأفكار تتعارض وما قرره الإسلام . فللمسلم أخلاقيات أساسية وله مبادئ وتشريعات تحرم عليه الإباحية وتحدد له قوانين العلاقة الأسرية وما فيها من حقوق وواجبات .

ثانيا : إن الإباحية عندهم أنشأت نسبة هامة من الشباب المنحل والكهول المشلولين والبيوت الخاوية والأنفس المريضة والأجسام المتهدمة التى تفتك بها الأمراض المستعصية .

ثالثا : ولتكون النظرة صحيحة فلابد من البحث عن القيمة الإنسانية للفرد فى تعامله ، ومصيره ومعرفة حقيقة البيت وحقيقة من فيه .

فهل نعم الإنسان حقا بدفء الحياة العائلية ؟ وهل أحس بقداسة المسؤولية العائلية ؟ وهل عرف معنى صلة الرحم ؟ وهل عمل من أجل أمر يكون له ذخرا فى آخرته ؟

كلا ، بل رخصت عنده نفسه ، وغدر بأسمى معانى العلاقات الإنسانية فتحرر من مواثيق الزوجية وهدر الأبوة وشحت عواطفه نحو فلذات كبده .

لقد عاثوا فى الأرض فسادا ففسدت عليهم حياتهم ، تصارعوا مع سنة الله فى نفوسهم فباءوا بهزيمة وانطوائية وأحسوا بالاغتراب والضياع واجتثوا أصولهم فانقطع عنهم النسل . جرب الجنسان منهم لعبة الحرية والاعراض عن الزواج فقعدوا عوانس وشيوخا يعانون الوحدة ويتألمون من الوحشة فهذا ينضم إلى زمرة الخنافيس والأخرى تنتقل من مقعد إلى آخر على قارعة الطريق تغازل كلبا

أو تعايش قطة يحاولان الهروب من نظرات المستهزئين الساخرين . وكثيرا ما تكون النهاية فى غياهب مستشفى أو فى بيت مظلم بعد حرمان مرير وفقدان لكل عناية أو حنو ورأفة .

إن من أشد الارزاء التى تصاب بها الإنسانية أن يتجافى الجنسان فتشتهر الحرب بنهما بسبب الخطأ فى النظر والفهم لحقائق الوجود فيقوم بينهما التناحر ويطالب كل واحد منهما بالمساواة بالآخر وينصرفان عن المطالبة بالتكامل لا المساواة . وهذه الجرثومة هى أخطر ما استوردناه من الغرب .

ففكرة معاداة الزواج هى سليلة تلك الاعتبارات الخاطئة وهى نهاية حتمية لتلك المسيرة . قال الله تعالى : **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير﴾**[1]

هذه الآية الكريمة تخاطب الناس جميعا وتنبههم إلى ما يجب على الجنسين من عمل مشترك للتعارف والتحابب والتعاون والتكامل حتى يتسابقوا إلى تقوى الله التى هى خوف الله فى النفس والأهل والولد والمجتمع .

هذه الدعوة الإلهية وهذا البيان الربانى يبين لنا حقيقة العلاقة بين الجنسين ويدلنا على أن خير الإنسانية فى التكامل والتعاون على الوجه المشروع وبالطريقة التى بينتها الآيات المحكمة والأحاديث الصحيحة .

---

(١) سورة الحجرات/١٣ .

فالعنوسة والاستقلالية والانزوائية واللامبالاة بالآخرين ظواهر دخيلة ومدسوسة فى مجتمعنا الإسلامى . وإن تفجر العلاقات بين الجنسين وظهور فكرة المعاداة بينهما بتعداد المساوئ واحصاء النقائص والهفوات وإظهار أوجه التفاضل والامتياز لا ينتج إلا المجافاة ولا يزيد إلا نارا فى أتون هذه الحرب المقيتة التى ما أنزل الله بها من سلطان .

فهل كان ـ فى يوم ما ـ النقد والتجريح والاستنقاص كفيلا بإنقاذ المواقف الخطيرة ؟

إن الحكمة الإلهية تكمن فى التعاون والتكامل بين الذكر والأنثى لأن الإنسان مدنى بطبعه ، والتزاوج هو نقطة الانطلاق لهذا التكامل ، أما دعوة الاستقلالية بالذات وإمكانية الاستغناء عن الرفيق فهى بدعة ومراوغة وإثارة لروح المعادة وسبيل لنشر التفرقة والتمزق ، ونتائج ذلك تكون محبطة للفرد مخربة للبيوت ووباء على المجتمع .

فالزواج ارتباط وتلاحم وهو تقيد ، لذلك تعتريه الأحكام الشرعية الخمسة : الوجوب والحرمة والإباحة والندب والكراهة . وهو على الصورة التى ضبطها الشرع والمنهج السنى أوثق بناء يقام عليه صرح الحضارة التى أساسها عمارة البيوت وفلاح الفرد وازدهار المجتمع وتقدم الإنسانية .

ومن الآية الكريمة التالية يمكن أن نلم بتأصيل فكرة التعمير والبناء ـ قال تعالى ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا**

الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾[1]

إن الإقبال على الزواج والحفاظ عليه وضبط النفس وتقوى الله فيه مع تفضيل طرق الاختيار وإنشاء العقد الذى يجعل كل حقوق وكرامة المؤمنة والمؤمن فى حماية من الاعتداء ، بعيدين عن مظنة الاستنقاص والاستصغار أو الاستغلال المخل . والتكليف الإلهى حمل الإنسان مسؤولية الخلافة وبين النمط الذى يجب أن يسير على هديه حتى يتم له حفظ دينه ونفسه وعرضه وماله وولده .

ومن الانحرافات الخلقية والدسائس الدخيلة أن يهمس فى آذان الناس بأن المرأة فى كثير من البلاد المتقدمة سارت فى درب الحياة الطويل بمفردها ، وكم كانت موفقة فى حياتها إذ جمعت بين الخدمة الاجتماعية وظيفة ودواما وبين تربية الأولاد والقيام بشؤونها وشؤونهم ماديا وأدبيا دونما تعارض .

حقا كثيرات هن أولئك النساء ولكن ليس فى البلاد المتقدمة فقط وإنما هن كثيرات فى كل المجتمعات وفى كل البلدان وفى كل الأزمان . والمفروض أن يكون للمرأة الوعى الكامل والقدرة الكافية لمواجهة الطوارئ وأن تتقبل هذه الحالات المقدرة لها بنجاعة ونباهة وحذق وذكاء تدفعها إلى ذلك عاطفة الأمومة وتضحياتها للحفاظ على العائلة والأبناء عند فقدان الزواج . ولكن هل يمكن أن نعمل على تعميم هذه الحالات توقا لها وافتخارا بها . ؟

الواقع أن مثل هذه الحالات مثار رأفة ورحمة واكبار لجهاد المرأة ، وليست أبدا مبدأ معتمدا وطريقة مسلوكه يجب أن تعمم فنشجع النساء المسلمات على اتخاذه مذهبا فى الحياة .

وإذا حللنا واقع السيدة التى حرمت الرفيق وفقدت السند فإننا نجدها بتحملها كل الأعباء فى وحدتها ووحشتها وجسيم تعبها إنما هى مجاهدة حرمت حقها الطبيعى وتحملت من الحرمان الشىء الكثير وحملت أوزارا عظيمة احتسابا لله وتضحية فى سبيل تنشئة وتربية من ليس لهم سواها يكفلهم ويحميهم .

ومع أنه يجب أن لا ننسى أو نتجاهل حقيقة أخرى هى أن ما تصاب به هذه الفئة من النساء من آثار هذه الأوضاع والرزايا العظمى ومن ذلك تعدد وتنوع الأمراض العضوية والنفسية وما يتحملنه من نتائج تلك التضحيات .

لاشك أن الزواج اليوم يعتبر من أعوص المشاكل التى يلاقيها الإنسان فى حياته ، وما ذلك إلا لانحراف الكثير من الطرفين عن التوجيه الشرعى السليم ، وضبابية الرؤية واختلاف الغرض فكثيرا ما تصبح البنت المثقفة الواعية تقيس الأمور بمقاييس تختلف تماما عن أختها قبلها .

ومن باب تقديرها لمسؤولية الزواج أصبحت لا تعتبر الإمكانيات المادية المتوفرة لها ولا المكانة الاجتماعية المتاحة لها ولا الهيئة الجمالية من حيث الشكل هدفها الأول بقدر ما تطمح فى الحصول على شهامة الرجولة المقدرة لحجم المسؤولية . فهى تأمل من وراء الزواج عطاء يستجيب لعطائها وسكون تمنحه وتنعم به وراحة فى النفس وطمأنينة على المستقبل .

إن استجابة المرأة للزواج هى استجابتها للطبيعة التى خلقت فيها ، ولا شك أن إقدامها على تجربة الزواج تتحمل فيها

المسؤوليات وهى مرحلة طويلة من حياتها وأيام حياتها الزوجية شأنها شأن عامة الإنسان فيها الشدة وفيها الرخاء فيها الأمل والخيبة وهى على كل حال أسعد حظا وأقوم سلوكا من تلك التى سلكت مسلك الحرية المتسيبة وكبتت الطبيعة التى ركبت فيها .

فعلى المرأة المسلمة : أن تشق طريق الحياة على هدى من التوجيه

الشرعى وأن تتمسك بنور الهداية ويقين الإيمان
ولا تكترث بما قالوا ويقولون عن المرأة
وما يخططون من وراء أقوالهم وكتاباتهم
المضطربة القلقة !

فهذا يقول : المرأة هى الحياة .... وهى السعادة ....
وهى البهجة وهى السكن والراحة والأمل ....

وذاك يقول : المرأة هى المكر وهى الدهاء وهى الخداع
وهى الشقاء وهى الشر الذى لابد منه ... وهى
المحنة .

وقد يجد كل قائل منهم وقائع يستشهد بها
وحالات يستدل بها .

ولو كانوا منصفين لوجدوا الأمر طبيعيا إذ أن المرأة نصف المجتمع وأحد أركان بنائه والكون يعج خيرا وشرا والأنفس منها اللوامة ومنها الأمارة . والوظائف البشرية معرض للتصرفات ومحك للتجارب الإنسانية . فالمرأة فى أمومتها معطاءة تبذل من الجسم والنفس الشيء الكثير تتحمل مشاق الحمل والإنجاب والتنشئة والتكوين يتلألأ نور الوجود فى آمالها المشرقة فى مستقبل وليدها

وفلذة كبدها غير عابئة بما يصيبها من الوهن والضعف .

وهى فى الأخوة معطاءة تحن وتكرم وتبجل وتقدر وتدافع وتستميت وفى البنوة تكون مكرمة مدللة تتخذ لنفسها شبه موازين تقيس بها ما تكن للأب من الحب والتقدير وما يبذله هو لإرضاء نهمها العاطفى واستجابة لطلباتها المادية التى كثيرا ما تكون مشطة .

وفى الزوجية تعقد الآمال العريضة وتخطط لتختص بالرعاية وتنفرد بالعناية تتخذ لذلك كل الطرق والأساليب وتصنع من عالمها واقعا عجيبا قد يكون اكسير الحياة الزوجية وقد يكون نقمتها وشقاءها .

والله جلت قدرته عليم بخفايا الصدور المطلع على مختلف الطباع العارف بوساوس النفوس أنزل الآيات البينات المحكمات لتوضح للمؤمن والمؤمنة طريق الحق ومسلك الصواب حيث حرم الظلم بجميع أشكاله ورغب فى التقوى وحدد من أنانية الفرد كل ذلك بتشريع محكم الحلقات غايته العمل من أجل النفس ولصالح الأهل وتربية الولد وأمن المجتمع يكون فى ذلك التبادل من الأخذ والعطاء رجاء أن ينعم الإنسان بالراحة ويأمن على نفسه فى كل مراحل حياته وتقلباتها ويتم من وراء ذلك التعاون والتكامل والتلاحم بالمعاملة الحسنة والخلق الدينى الكريم فيسلم كل من أخيه ويأمن على ذاته بعدم إذايته باليد أو اللسان ويكون بين المرأة والرجل المعاشرة بالحسنى أو التسريح بالإحسان .

ولله الأمر من قبل ومن بعد .

---

(١) غيرة أزواج رسول الله ﷺ .

غيوم هذا الزمان

لقد تفشت ذبذبة خلقية وغيمت سحب القلق على العلاقات وانتشر ضباب الحيرة فاهتزت النفوس وصبغت التصرفات بلون قاتم مظلم .

ضاق به الناس ذرعاً وشد أعصابهم تصارع القوى وتضارب المصالح وانعكس الوضع على سلوك الأطفال فأصبحوا يتقمصون أدوار العنف ويتمثلون بشخصيات تتبادل البطش ويطبقونه فى سلوكهم مع بعضهم البعض .

بات من العسير تصور الحياة الهادئة التى يشعر فيها الإنسان بالفرح ملء القلب والراحة الإحساس والمرح المسلى للخاطر رغم الجهود المبذولة لنشر التسلية وتوافر محلات التلهى . أين الطمأنينة التى تهدهد أجساد الأطفال ؟ والابتسامة التى ترسم الواقع ؟ أين رحابة الصدر التى تشد أعصاب الكبار فيرتاحون لهرج الأطفال ؟ أين تحملهم لعبث الطفولة وتجاوزاتهم ؟ كيف نغذى وجدانهم بسلبية وجداننا وجفاف عطفنا ؟ كيف نهذب خلقهم ونحن فى غفلة عنهم ؟ كيف نربى الأنفس ونعودها على الخير والبر والفضيلة وسط هذا الصراع المخيف ؟ لعل فقدان الأمن النفسى يدفع الإنسان إلى امتطاء ركوب غير ركوبه ويلبسه غير لبوسه ويجعله يروم ما لا قبل

له به ... تسابق الكثير فى جمع المادة وتكديس الأموال وخزن الذهب والفضة واندفع غيرهم لهدر ما اكتسبوا لنيل الشهوات وجمع اللذائذ. تاه الكثير فى المسارات الخاطئة دون وعى لتقدير قيمة مسؤولية سوء السلوك واهدار الطاقة وتجاوز الحق.

طمس النهم فاعلية حلية التكسب. ولوث التهور مصداقية الحق والواجب. فشاع بين هذا وذاك اهمال مخل وتجاوز مفرط ومغالطة غابنة وتمويه مضر وتسويف قاتل. دب فى التركيبات البشرية شبح الظلم واتخذ الاعتداء مسارات تنازلية وتصاعدية تترامى للعيان من خلال التعالى والاستخفاف ابتداءً من التجاوز والظلم وانتهاءً بالغبن والمحق.

فالآذان لم تعد تستغرب أو تستكثر عدد حالات التجويع والتشريد وذكر قائمات ضحايا التقتيل الجماعى ، والأعين لم تعد ترتمش من مرأى المشوهين ولا مشاهدة المبعثرين ولا ترتعش الأجسام ولا تقشعر ممن يصارعهم الموت وهم مضرجون فى دمائهم فلا تهتز الأحاسيس إليهم ولا تخف الجموع لإنقاذهم والدفاع عنهم.

بل فى كثير من الأوساط لم تعد مواقف الغدر ، ومراوغات التحيل وحالات الخيانة وممارسات مخجلة أو أخلاق منكرة أمارات خزى بل ربما اعتبرت بطولات ومهارات دهاء ودليل حنكة وغلبة انتصار.

انحط الخلق وطغت المادة وعاد منطق الاحتكام للقوة سيرته الأولى منطق الحديد والنار منطلق قنابل الذرة والهيدروجين والقوى

الذرية والنووية والعنقودية وصواريخ أرض جو وغيرها كثير.

تسابق أذهل العالم وشلّ قوى الأنفس بمباهاة ومفاخرات باكتشاف أبشع القوى المدمرة انذار متكرر يهدد بالمحق والاتلاف والتدمير الكلى الذى يأتى على الحرث والنسل والأخضر واليابس، ظل مخيف يلاحق العصر ويعكر صفو حياته.

لعل هذا الجو المكفهر أكسب هذا الإنسان ذلك التصرف المشين المنبثق من اضطرابه فى النفس وقلقه على المستقبل فاندفع وراء كل ما هو مادى يسعى إليه فى دوامة اللاوعى فاندست نفسه وتهور طبعه وحجرت عواطفه وتبلد شعوره فاستعلى وغوى ولم ينه النفس عن الهوى.

استباح تجاوز حق الغير وتخلى عن تحمل مسؤولية الرعاية المنوطة بعهدته. استطاع إنسان هذا العصر تجاوز قوانين التعايش الطبيعى الآمن.. وغفل عن قيمة التعاليم السماوية زاغ ببصره عن الحق وبسلوكه عن الصواب راغ عن الطريق القويم الذى يمنع الظلم ويحرم الاعتداء ويحذر من الغفلة عن رعاية من تجب عليه رعايتهم.

بل تراه لوّن سلوكه حسب هواه وصاغ معاملاته حسب إرادته لم يأبه لشراسة غرض أو غبن لحق أو اذلال لنفس أو قهر لمستضعف أو امتهان لكرامة أو تعذيب لجسم.

نقطة بداية التيه عند الإنسان غفلته وعدم وعيه وسوء ضبطه لنفسه ومحاسبتها واحتسابها لله عزّ وجلّ فى التحمل والأداء مما أدى به للتجاوز وغبن حقوق الآخرين.

ذلك الغبن المتمثل فى التلهى عن التحمل وترك الرعاية واهمال

العناية وذلك التجاوز المتمثل فى الأنا وعدم تقدير حقوق الغير فى المعاملة على النمط القيم والأخلاق المستقيمة .

«**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**» ..

«**عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به**» ...

حديثان شريفان يشيران إلى معنى التحمل وحتمية العمل وكيفية التعامل ومقياس المعاملة .

فالرعاية أمر كلى ومسؤولية شخصية تتعدد نوعاً وتختلف متطلباتها باختلاف المرعى حتى تسقط كلفة الراعى وينجو من ذنب الاهمال وجرم مسؤولية التسيب منها ـ وهى مناط تكليفه من الله عزّ وجلّ .

والرعاية أيضاً أداء وكيفيات سلوك تتصف بالتقوى والعدل وتنعت بالتعدى وعدم التقوى فى من نرعى ونتحمل فيهم مسؤولية التربية وكيفيتها من كل الحيثيات .

فماذا عن الاجحاف بحق من نربى فى الرعاية وعدم العناية بهم ؟ وماذا عن اهمال الشباب وتسيبه ؟ وماذا عن سلوك الزوج والزوجية فى سوء المعاشرة ؟ وماذا عن تخلى الأبناء عن الآباء وقت الحاجة ؟ وماذا عن عدم حسن الجوار ؟ وماذا عن تخلف الضمير المهينى ؟ وماذا عن اهمال مسؤولية الدين فى كل منها ؟

اهمال وتسيب وتفريط فى الحقوق وممارسات مخلة بالواجب فى حق المستضعفين ومن نحن مسؤولون عن رعايتهم .

إنه الإنسان ما أكفره بربه ، وما أقساه على بنى جلدته ، وما أشده على من هم تحت رعايته ، وما اطغاه حين ينسى مم خلق ؟

﴿خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب . إنّه على رجعه لقادر﴾ .

إن الإساءة والتجاوز فى الأمور المادية قد يبقى أثراً ملموساً يكون شاهد اثبات ويكون حيثيات ادانة يستفيد طالب الحق منها ، أما ما كان من اعتداء يصيب الممارسات السلوكية فى المعاملة التى يغيب فيها الاثبات وتبهت دونها حجج الإدانة باهمال حق المرعى والتلهى عن المسئولية وعدم الوعى بما ينتج عن ذلك من مضار تنعكس على الأسرة والمجتمع فإن معاده لرب العالمين وهيهات هيهات لهؤلاء المظلومين والمعتدى عليهم أشنع اعتداء أن يتفطن إلى حقهم أو يمكن لهم استرجاعه فى يوم من الأيام ، ما لم يرحمهم الله فيهدى الراعين لهم لردع نفوسهم ويخافون الله فى من يرعون وتكون المحاسبة نابعة من داخلهم فيحتسبون لله ويخافون فيهم مقام ربهم الأعلى .

وفداحة هذا الأمر تبرز فى فعل الجبابرة الذين يمارسون الاعتداءات من هذا القبيل «أى الاهمال والتضييع والتضليل» فى دوائر مختلفة الأسرة والوظيف وقد تكتسب شكلاً أخطر إذا اكتسبت صبغة المغالطة التى أصبحت بضاعة رائجة فى أسواق المعاملة وبدت المزايدات المجحفة فى ضروب المغالاة فيمن ادعوا تحمل مسؤولية خدمة الإنسانية من وراء تعميم المصلحة وبغية نشر الوعى وإرادة مراعاة مصلحة الشعوب والعمل على تحقيق السلام للجميع .

ليرجع كل منا لنفسه ليبحث عن مدى هذه المسؤولية وحق هذه الرعاية ؟ ولنراقب تصرفاتنا مع من نحن مسؤولون عنهم ؟

لنتأمل قيمة الوجود البشرى دون التحمل ؟ ولنقايس جدوى النفعية دون مراعاة الأحاسيس واعطائها حظها من كريم المعاملة ؟ «**بما تحب أن يعاملوك به**» لو تأمل الواحد منا نفسه وتتبعها فى مسارات حياته واستبان حدود ممارسته لتقدير حجم مسؤولياته المختلفة أصلاً وفرعاً ومتعلقات الرحم والجوار والعمل لاستشعر أهمية الكلمة والاشارة والإقدام والاحجام والغفلة والتجاوز واحتسب فى الأمر كله لله عزّ وجلّ لثقل منه الرأس ولاستعبرت عينه وبكت جوارحه خشية وارتعش جسمه رهبة واهتز كيانه يطلب مرضاة ربه وغفرانه ذنبه فيما قدم فكيف نتصور عاقبة أمر المهملين المتسببين المتجاوزين الغابنين للغير الغير الواعين لجسيم تحمل مسؤولية تكليف الله عزّ وجلّ للإنسان فى تحميله رعاية من تجب عليه رعايتهم ؟

ماذا نقول فيمن أصبح ينحصر عمله فى اتخاذ الأساليب الملتوية لتنغيص عيش البشر وتنكيد حياتهم ومسؤولية ما ترك فيهم من خلفيات ضيق الصدر وتهور المشاعر ونفرة الطباع وشقاوة الأنفس وبلبلة الأفكار وتذبذب العقيدة ؟

سبحان الله الذى خلق هذا الإنسان وجعله مرعياً يتحمل مسؤولية الرعاية خلفاً عن سلف وجعله يعلم من الشرع ما لا يعلم أودع فيه غريزة الحب والكره والتطلع والبحث ليفرق بين الحق والباطل بين مواقف الصدق والادعاء .

بالدين والتدين يدفع الإنسان عن نفسه غبن الغابنين وبه يبطل شبهات المضلين ويقطع أحابيل تجاوزاتهم ويكشف عن سوء نياتهم وينسف اشاعاتهم وهو عين مسؤولية المسلم فى دينه .

وعلى المسلم الراعى أن يعوّد من يرعى على تبين الحق من الباطل وأن يعمل على نصرة الدين ليدرك أوامر الله ويستجيب لها وينتهى عن النواهى ويحجم عنها يتبين الصديق النصوح من العدو المراوغ المقنع .

«**القابض على دينه كالقابض على الجمر**» . على الأسرة تحمل مسؤولية تبيين ما نعانيه فى هذا العصر من ضبابية التشكيك فى القيم بسلوك طرق التعامل السليم وتقدير مسؤولية التحمل الدينى القويم حتى تنقشع السحب عن حقائق الأمور وتعلم مدى ضرر تناقض القول مع العمل وأن هذا التشكيك هو محنة العصر وابتلاء من الله عزّ وجلّ لعباده المؤمين المخلصين .

فدلالة الحديث «**كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته**» المرأة فى بيتها راعية وهى مسؤولة عن رعيتها الخ ـ تعنى تحمل الإنسان مهمة التكليف وبمعرفة الحق والواجب والعلم والعمل قولاً وفعلاً بما حدده لنا الشرع ونبهنا إليه الدين القيم سلوكاً مع النفس والأهل والولد تصلح الرعاية .

فخلفيات عدم الوعى للمسؤولية الدينية وسوء تقدير الرعاية وعدم تبين السلوك القويم يؤدى إلى التداخل فى المفهوم العام والخلط بين الحق والواجب . والصدق والكذب وينتج عن ذلك كله الميوعة فى الفهم والاضطراب فى المواقف وسوء التصرف فى السلوك والانحراف فى المبادىء والذبذبة فى اعتبار القيم .

وهذه كلها تؤهل الأفراد لاستساغة الابتلاع واستسهال الاستهانة بالمقدسات .

وما من شك فى أن آفة هذا الزمان تكمن فى تشكيك الجيل وتربية النشء على استصاغة المراوغة والاستهانة بتمييع الطباع حتى يمسكوا معاول تهديم أنفسهم وتنجح خطة برامج أعداء الأمة المرسومة فى مراوغة الأهداف وتضليل المواقف وإذاعة متاهات حجج الأقوال وضياع الحقائق .

لقد حملنا ديننا الحنيف مسؤوليات كثيرة ومن أعظم هذه المسؤوليات أن نكون صادقين فى ما نقول صادقين فى ما نفعل صادقين فى ما نؤمن به . ومن أعظم بدع هذا الزمان انعدام الصدق فى كثير من النفوس حتى تقمص العدو هيئة الصديق وصيغ الباطل فى قالب الحق وراجت أسواق النفاق فى الدين والفكر والسياسة والعلوم فاختلط الخير بالشر واشتبه الحبيب بالغادر وعمى على الناس قول الحق بقول الزور .

ولله الأمر من قبل ومن بعد وهو الكفيل بهداية الضالين .

الفهرســت

صدر من هذه السلسلة

الكتاب	المؤلف
١ ـ تأملات فى سورة الفاتحة	[الدكتور حسن باجودة]
٢ ـ الجهاد فى الإسلام مراتبه ومطالبه	[الأستاذ أحمد محمد جمال]
٣ ـ الرسول ﷺ فى كتابات المستشرقين	[الأستاذ نذير حمدان]
٤ ـ الإسلام الفاتح	[الدكتور حسين مؤنس]
٥ ـ وسائل مقاومة الغزو الفكرى	[الدكتور حسان محمد حسان]
٦ ـ السيرة النبوية فى القرآن الكريم	[الدكتور عبد الصبور مرزوق]
٧ ـ التخطيط للدعوة الإسلامية	[الدكتور على محمد جريشة]
٨ ـ صناعة الكتابة وتطورها فى العصور الإسلامية	[الدكتور أحمد السيد دراج]
٩ ـ النوعية الشاملة فى الحج	[الأستاذ عبد الله بوقس]
١٠ ـ الفقه الإسلامى آفاقه وتطوره	[الدكتور عباس حسن محمد]
١١ ـ لمحات نفسية فى القرآن الكريم	[د. عبدالحميد محمد الهاشمى]
١٢ ـ السنة فى مواجهة الأباطيل	[الأستاذ محمد طاهر حكيم]
١٣ ـ مولود على الفطرة	[الأستاذ حسين أحمد حسون]
١٤ ـ دور المسجد فى الإسلام	[الأستاذ على محمد مختار]
١٥ ـ تاريخ القرآن الكريم	[الدكتور محمد سالم محيسن]
١٦ ـ البيئة الإدارية فى الجاهلية وصدر الإسلام	[الأستاذ محمد محمود فرغلى]
١٧ ـ حقوق المرأة فى الإسلام	[الدكتور محمد الصادق عفيفى]
١٨ ـ القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته[١]	[الأستاذ أحمد محمد جمال]
١٩ ـ القراءات أحكامها ومصادرها	[الدكتور شعبان محمد اسماعيل]
٢٠ ـ المعاملات فى الشريعة الإسلامية	[الدكتور عبد الستار السعيد]
٢١ ـ الزكاة فلسفتها وأحكامها	[الدكتور على محمد العمارى]
٢٢ ـ حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم	[الدكتور أبو اليزيد العجمى]

الكتاب	المؤلف
٢٣ ـ الأقليات المسلمة فى آسيا وأستراليا	[الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
٢٤ ـ الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر	[الدكتور عدنان محمد وزان]
٢٥ ـ الإسلام والحركات الهدامة	[معالى عبد الحميد حموده]
٢٦ ـ تربية النشء فى ظل الإسلام	[الدكتور محمد محمود عمارة]
٢٧ ـ مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامى	[الدكتور محمد شوق الفنجرى]
٢٨ ـ وحى الله	[الدكتور حسن ضياء الدين عتر]
٢٩ ـ حقوق الإنسان وواجباته فى القرآن	[حسن أحمد عبدالرحمن عابدين]
٣٠ ـ المنهج الإسلامى فى تعليم العلوم الطبيعية	[الأستاذ محمد عمر القصار]
٣١ ـ القرآن كتاب أحكمت آياته [٢]	[الأستاذ أحمد محمد جمال]
٣٢ ـ الدعوة فى الإسلام عقيدة ومنهج	[الدكتور السيد رزق الطويل]
٣٣ ـ الاعلام فى المجتمع الإسلامى	[الأستاذ حامد عبد الواحد]
٣٤ ـ الإلتزام الدينى منهج وسط	[عبدالرحمن حسن حبنكة الميدانى]
٣٥ ـ التربية النفسية فى المنهج الإسلامى	[الدكتور حسن الشرقاوى]
٣٦ ـ الإسلام والعلاقات الدولية	[الدكتور محمد الصادق عفيفى]
٣٧ ـ العسكرية الإسلامية ونهضتنا الحضارية	[اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ]
٣٨ ـ معانى الأخوة فى الإسلام ومقاصدها	[الدكتور محمود محمد بابللى]
٣٩ ـ النهج الحديث فى مختصر علوم الحديث	[الدكتور على محمد نصر]
٤٠ ـ من التراث الاقتصادى للمسلمين	[الدكتور محمد رفعت العوضى]
٤١ ـ المفاهيم الاقتصادية فى الإسلام	[د. عبدالعليم عبدالرحمن خضر]
٤٢ ـ الأقليات المسلمة فى أفرقيا	[الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
٤٣ ـ الأقليات المسلمة فى أوروبا	[الأستاذ سيند عبد المجيد بكر]
٤٤ ـ الأقليات المسلمة فى الأمريكتين	[الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
٤٥ ـ الطريق إلى النصر	[الأستاذ محمد عبد الله فوده]
٤٦ ـ الإسلام دعوة حق	[الدكتور السيد رزق الطويل]
٤٧ ـ الإسلام والنظر فى آيات الله الكونة	[الدكتور محمد عبد الله الشرقاوى]

الكتاب	المؤلف
٤٨ ـ دحض مفتريات	د . البدراوى عبد الوهاب زهران]
٤٩ ـ المجاهدون فى فطانى	[الأستاذ محمد ضياء شهاب]
٥٠ معجزة خلق الإنسان	[د . عبد الرحمن عثمان]
٥١ ـ مفهوم القيادة فى إطار العقيدة الإسلامية	[الدكتور سيد عبد الحميد مرسى]
٥٢ ـ ما يختلف فيه الاسلام عن الفكر الغربى والماركسى	[أنور الجندى]
٥٣ ـ الشورى سلوك والتزام	[د . محمد أحمد البابلى]
٥٤ ـ الصبر فى ضوء الكتاب والسنة	[أسماء عمر فدعق]
٥٥ ـ مدخل إلى تحصين الأمة	[د . أحمد محمد الخراط]
٥٦ ـ القرآن كتاب أحكمت آياته	[الأستاذ أحمد محمد جمال]
٥٧ ـ كيف تكون خطيباً	[الشيخ عبد الرحمن خلف]
٥٨ ـ الزواج بغير المسلمين	[الشيخ حسن خالد]
٥٩ ـ نظرات فى قصص القرآن	[محمد قطب عبد العال]
٦٠ ـ اللسان العربى والاسلامى معاً فى مواجهة التحديات	[الدكتور السيد رزق الطويل]
٦١ ـ بين علم آدم والعلم الحديث	[الأستاذ محمد شهاب الدين الندوى]
٦٢ ـ المجتمع الإسلامى وحقوق الإنسان	[الدكتور محمد الصادق عفيفى]
٦٣ ـ من التراث الاقتصادى للمسلمين ٢	[د . رفعت اعوضى]
٦٤ ـ تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد	[الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكه]
٦٥ ـ لماذا وكيف أسلمت	[الأستاذ أحمد سامى عبد الله]
٦٦ ـ أصلح الأديان عقيدة وشريعة	[الأستاذ عبد الغفور عطار]
٦٧ ـ العدل والتسامح الإسلامى	[الأستاذ أحمد المخزنجى]
٦٨ ـ القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ٤	[الأستاذ أحمد محمد جمال]
٦٩ ـ الحريات والحقوق الإسلامية	[محمد رجا حنفى عبد المتجلى]
٧٠ ـ **الإنسان الروح والعقل والنفس**	[الدكتور نبيه عبد الرحمن عثمان]
٧١ ـ موقف الجمهوريين من السنة النبوية	[د . شوقى بشير]
٧٢ ـ الإسلام وغزو الفضاء	[محمد سويد]